قراءة نقدية لكتاب

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متر

الفصل العشرون (الأخلاق والعادات)

إعداد : د . عبد الباري محمد الطاهر

كلية دار العلوم بالفيوم - جامعة القاهرة

قدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ الذي قال عنه ربه عز وجل : (وإنك لعلى خلق عظيم) (سورة القلم : آية ٤) ، والذي قال عن نفسه : " إنما بعثت لأتمم صاخ الأخلاق " (١) ، ورضي الله عن آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد : فكتاب " الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري " للمستشرق الألماني آدم متر المتوفى سنة ١٩١١م ، من أهم الكتب التي لقيت قبولا في المكتبة العربية المعاصرة ، وتلقفه الباحثون في مجال الحضارة الإسلامية بوصفه على لسان مستشرق ألماني اهتم بالدراسات الشرقية اهتماماً بالغاً ، واعتمدوا عليه كثيراً في بحوثهم العلمية ؛ ولا أحد منهم من قام بتحليل كلام آدم متر أو التثبت من صحة آرائه - على حد نسبي - ؛ بل على العكس تؤخذ أغلب آراء هذا المستشرق من المسلمات التي لا تقبل الشك ، سوى بعض الإشارات الهامشية لترجم الكتاب إلى العربية .

وزاد من ضرورة التصدي لهذا الموضوع بالبحث والدراسة ما قاله صاحب " موسوعة مستشرقين " (٢) : [وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات ، ومنها العربية بعنوان : " الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري " في جزأين ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقد قام بهذه الترجمة محمد عبد الخادي أبو ريبة الذي أساء إلى الأصل إساءة بالغة ، لأنه في معظم المواضع كان لا يترجم كلام المؤلف - وهو شرح موسع متسق - بل ينقل النص العربي الذي إنما يشير إليه المؤلف دون أن ترجمه .

ولهذا بدا الكتاب في ترجمته العربية هذه مجرد سرد لنصوص طويلة ، فضاء عمل المؤلف لأصلي آدم متر (٣) ، وصرنا بإزاء سلسلة من الاقتباسات غير المتسقة المعنى ولا المطردة الحجاج ، وهذا الصنيع هو أسوأ ما يمكن أن يصنعه مترجم بمؤلف يترجم عنه ! ، ولهذا يحسن بالقارئ العربي أن يطرح جانباً هذه الترجمة العربية ، وأن يرجع إلى ترجمة أخرى إن كان لا يعرف الألمانية . (٤)]

فإذا ما وضعنا هذا القول إلى جانب ما قاله " أحمد أمين " في تصديره للنسخة العربية التي ترجمها أبو ريدة تأكد ضرورة البحث في هذا الموضوع ؛ فقد ذكر أحمد أمين - بعد مراجعته لهذا الكتاب في صورته العربية وثأنه على المترجم - أن مولفه قد تميز بدقة البحث وحسن الاستقصاء والاعتماد على المصادر الكثيرة المتنوعة وغربلتها واستخراج العجب والصر على البحث ، والدأب في العثور على مادة الموضوع ، والإحاطة بنواحي الحضارة الإسلامية من سكان ومال وإدارة وتجارة وعلم وفن وسياسة واجتماع ، وكشف نواح من الحضارة غامضة أو مجهولة وعالجها بصبر وأناة؛ وذلك من خلال جمع النصوص الكثيرة المتعلقة بالموضوع من مصادر متعددة ، والاكتفاء بها ، من غير أن يدخل شخصيته وآراءه في المسائل إلا في القليل النادر . وأخيراً يعلمنا هذا الكتاب - كما يذكر أحمد أمين ^(٢) - طرق البحث العلمي . وهذا الكلام يتناقض تماماً مع كلام " بدوي " والواقع الملموس هو وجود النسخة العربية بين أيدينا فضلاً عن صعوبة الحصول على النسخة الألمانية للباحثين العرب ، وبخاصة أن " بدوي " لم يقدم نصاً واحداً يؤكد ما وقع فيه أبو ريدة من خطأ في الترجمة .

وإذا سلمنا بقول بدوي السابق فنحن أما أمرين :

الأول : أن هذا الكتاب في نسخته العربية لا ينبغي تداوله ؛ لأنه نسب إلى غير صاحبه ، أو لأنه ليس يحمل أي صفة للأمانة العلمية ، وهذا الكتاب دليل - من خلال كلام " بدوي " - على عدم نزاهة المترجم " أبي ريدة " ، بل فيه تشكيك في ذمة " أحمد أمين " الذي أمر أبا ريدة بترجمة هذا الكتاب ، حيث وضع الأمر في غير أهله .

الثاني : أن النصوص التي يراها " بدوي " غير متسقة ، يمكن تجاهلها ، وعرض أفكار الموضوع ومع هذا ، فسجد عدم الاتساق حتى في الأفكار ، بله النصوص ، وهذا يؤكد - في ظني - أن النسخة الألمانية التي كتبت بخط المؤلف لن تكون كما يصفها " بدوي " شرحاً موسعاً متسقاً .

وحدير بالذكر أن " أحمد أمين " بعد عرضه لمميزات المؤلف وكتابه ، وهو ما لا يقره " بدوي " إجمالاً - وهذا واضح من النص الذي سبق إيرادَه على لسانه - إلا أن أحمد أمين عرض حملة من المثالب أو المآخذ على هذا الكتاب ، لكنه عرضها بصيغة التضعيف كالمعتذر عنها ، فيقول عن " آدم متر " : " إنه أحياناً يعسر عليه النص ، فيفهمه على غير وجهه . وأحياناً يبتسر النص ، وقد كان الإتيان به كاملاً يوضح رأيه أو يخالف وجهة نظره . ويستدل في بعض المسائل على رأي بنس واحد ، ولو

عرضت النصوص كلها لخرج منها برأي يخالف رأيه . وأحياناً يحكم عقيدته ، ونشأته ، واعتماده على
نصوص فقط دون الروح والذوق الفني والحو الإسلامي والوسط العربي يشرد في رأيه ويخطئ في نظره
والعجيب أن " أحمد أمين " لا يكتفي بصيغة التضعيف التي يبدو من خلالها الاعتذار لآدم متر
بل يحتم كلامه بقوله : " ولعل كثيراً من المآخذ التي عددناها يرجع إلى أن المؤلف قد عاجلته منيته ،
والكتاب في مسوداته لم يبيضها ، ولم يضعها في شكلها الأخير " (٦) !!

ولست أرى هذا العذر الذي ساقه " أحمد أمين مقبولاً " ؛ لأن بتر النص ، أو تحكيم العقيدة ،
أو التأثير بالنشأة ، أو تغافل الجو الإسلامي ، أو تجاهل الوسط العربي ، أو الاستدلال بنص واحد ، بل
والخطأ في فهم النص ... كل هذا وغيره ما كان سيتغير لو أن آدم متر قام بتبيض كتابه ، وإعداده للنشر
!! ولست مع هذا العذر أيضاً ؛ لأنه تدليس على القارئ ، وكان من الأولى أن يظهر هذا الكلام بشكل
واضح وأن يبينه على كل خطأ في موضعه حتى لا يقع القارئ في حيرة إن هو رأى رأياً لا يتفق والفكر
الإسلامي ، لأنه ربما تبادر إلى ذهنه أن المترجم يعتقد هذا الرأي غير الصواب أو المخالف للعقيدة
الصحيحة ، ولا يعني كلامي هذا غمط آدم متر حقاً هو له - إن وجد - ميل يعني إبرازه ، ولكن على
اخبار الآخر لا ينبغي أن توقع القارئ في حرج ، أو نعتذر له ، أو نلوي الحقائق أمامه ، أو نتجاهل
ما لا ينبغي تجاهله .

وحدير بالملاحظة أن " الاقتصار على جمع النصوص الكثيرة المتعلقة بالموضوع من مصادر
متعددة والاكتفاء بها من غير أن يدخل شخصيته وآراءه في المسائل إلا في القليل النادر " ليست ميزة
لآدم متر - كما يعتقد أحمد أمين - ، بل هي من العيوب الخطيرة ؛ لأنها تذيب شخصية الباحث
وسط ركام المعلومات ، وتؤكد عدم قدرته على التحليل والنقد ، أو على الأقل عدم هضم المادة العلمية
وصياغتها بأسلوبه ، وفي هذا المقام نأخذ كلام " عبد الرحمن بدوي " الذي يشير إلى أن آدم متر لم
يقصر على جمع النصوص ، وإنما خصها وعرضها بأسلوبه غير أن مترجم الكتاب إلى العربية ترك
صياغة المؤلف ، وقدم النصوص ، ورصها بجوار بعضها ، فبدت مفككة مضطربة ، ولعل هذا هو الذي
دفع " أحمد أمين " الذي لم يطلع إلا على النسخة العربية أن يقول ما قال .

كما أن طبع الكتاب قبل تنقيحه ليس مبرراً للوقوع في الأخطاء الجسام التي لمسها " أحمد أمين " واعتذر عنها بأن الكتاب كان مسودة ، إذ إن المسودة إذا كان النص فيها متوراً ، فهو دليل
على تحديد اتجاه المؤلف منذ البداية ، أما إذا اعتذر هذا العذر فالأولى ألا يخرج الكتاب إلى النور وهو في

حقيقته مقطوع متور غير مكتمل ، فإذا حاز لأحد المستشرقين أن يشره ناقصاً ، فلا ينبغي في حقا نحن المسلمين أن نتلقف كتاباً متوراً ونسعى لترجمته ونضيفه إلى المكتبة العربية وهو مليء بالأخطاء ومضطرب الحجاج.

ونتساءل أخيراً .. أين الحقيقة؟ هل اطلع " بدوي " على النسخة الأصلية ؟ إن كان كذلك فكان ينبغي عليه أن يقدم مثلاً واحداً خطأ ترجمة أبي ريدة !! . وهل تأكد " أحمد أمين " من كلام أبي ريدة أن النسخة الأصل مسودة ؟ إن لم يكن تأكد فقد خالف النهج الصحيح ، وأوقع القارئ العربي في حرج شديد ..

من أجل كل هذا رأيت أن أخوض غمار هذا البحث لعلني أتمكن من الوصول إلى شيء من الحقيقة، أو ألفت النظر إلى ضرورة الوصول إليها .

وقد طبع الكتاب عدة مرات ، مما يشير إلى إهتمام الباحثين به حتى أن الطبعة الرابعة منه قد نشرتها كل من مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الكتاب العربي ببيروت سنة ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م وكانت مزودة بعدة فهراس قام بها " رفعت البدرائي " ، وقد تغيرت بعض الصياغات عن الطبعة الأولى ، ولا أدري هل هذا التغير في النصوص من عمل " أبي ريدة " أو من عمل " البدرائي " فإن كان من عمل " البدرائي " دون الرجوع إلى أصل الكتاب ، فهو خيانة للعلم وأهله ، وإذا كان الأولى أن يقيم النص الأصلي على ما هو عليه ثم يعلق " البدرائي " على أخطائه في الحاشية . وقد علق الناشرون على الكتاب بقولهم : " هذا الكتاب " ثمرة نافعة لجهد عظيم . جهد مؤلف منصف صبور واسع الاطلاع وجهد مترجم مجيد وعالم متخصص .. ويكفي أن نعلم من حملة المصادر الكتاب مخطوطات أربت على الأربعين لم ينشر معظمها ، محفوظة في مختلف عواصم أوروبا .. لنقدر بعض هذا الجهد . الكتاب في مجلدين يضمان تسعة وعشرين فصلاً ، لم يتحرك ناحية من نواحي البحث فيما يتعلق بالدولة الإسلامية العظمى في ذلك العصر إلا وفصلها ، حتى جاء أشمل صورة ممكنة عما كانت عليه حال الدولة ، خلفاء وأمرائها وسلاطين وقواداً وشعباً ، جماعات وأفراد ، علماء وأدباء ، ومعتقداً وفلسفة واجتهاداً .. وإنما لصور مشرقة للحضارة الإسلامية في عصر النهضة في الإسلام، من جميع نواحيها العقلية والمادية .. نقدمها بكل اعتزاز إلى قراء العربية، وارثي الحضارة الإسلامية..." وهنا ينبغي الإشارة إلى أن دور النشر التي تسعى إلى ترويح الكتب لابد أن تخضع إلى رقابة صارمة، وأن تبقى الله تعالى فيما تشره على المسلمين .

وقد احترت الفصل العشرين من فصول هذا الكتاب، وهو بعنوان " الأخلاق والعبادات " (٧) ليكون موضوع هذه الدراسة ، وذلك لوضوح مخالفة " آدم متر فيه " للمنهج العلمي السليم من جانب ، حيث ظهر عدم مطابقة عنوان الفصل لمضمونه - كما سيتضح بعد قليل - ، ومن جانب آخر فإن مظاهر الأخلاق والعبادات في القرن الرابع الهجري قد حفلت بها كتب التراث الإسلامي ؛ لما شهدته هذا القرن من تطور ملحوظ في الفكر والثقافة ، أدى إلى تسجيل دقيق لعادة الناس وأخلاقهم من خلال كتب الرحلات وغيرها ، ومع ذلك لم يتعرض " متر " لهذه الكتب، ولم يقدم الطرح الواقعي لأخلاق الناس وعاداتهم ؛ وأخيراً لتحلية حقيقة كلام " بدوي " و " أحمد أمين " عن هذا الكتاب إجمالاً .

وستعرض هذه الدراسة بإذن الله ما توفر من معلومات عن شخصية " آدم متر " ، ثم ينتقل الكلام للمقارنة بين عنوان الكتاب وعنوان الفصل ، ومدى الترابط بينهما ، ثم تنتقل لعرض موضوعات الفصل العشرين عن الأخلاق والعبادات ، وصفاً وتحليلاً ، ونقداً ، وأخيراً تكون الخاتمة التي أعرض فيها تصوري عن دراسة القرن الرابع الهجري ، وما غفل عنه آدم متر عن عمد أو غير قصد ، متتبعاً بالتوصيات والمقترحات .

وأسأل الله تعالى أن يجنبنا الوقوع في الزلل، أو تزيف الحقائق ، وأن يهب قلبي الصدق ، يهب عملي الإصلاح ، ويهب نيتي الإحسان والتوفيق .. إنه سميع مجيب . والله من وراء القصد ..

آدم متر - ADAMMEZ - :

لم تعط المصادر والمراجع التي بين أيدينا معلومات كافية عن آدم متر ونشأته الأولى، حتى إن مترحم كتابه إلى العربية "محمد عبد الهادي أبو ريذة" لم يقدم شيئاً يذكر عن حياة هذا الرجل.

أما " عبد الرحمن بدوي " فقد ذكر صفحة واحدة فقط عن ذلك المستشرق أغلبها حديث عن كتابه الذي نحن بصددده ، أما ما قاله عنه فنصه (٨) : [مستشرق ألماني ، استقر في بازل بسويسرا . ولد في فرايبورج - أن - بريسجاو [جنوبي ألمانيا] ١٨٦٩م واهتم بالأدب العربي في القرن الرابع الهجري وما تلاه . نشر في ١٩٠٢م " حكاية أبي الناسم " لأبي المطهر الأزدی تحت عنوان : ABUL KASIM , EIN BAGDADER SITTENBILLD وذلك عن مخطوط وحيد رديء ، وقد اقترح دي خويه [GGA ١٩٠٢ ص ٧٢٣ ك ٧٣٦] الكثير من التصحيحات لنشرة متس هذه . وقد زود متس نشرته بمقدمة ممتازة وتعليقات وفيرة ومعجم ألفاظ. وبعد وفاته في ١٩١٧م وهو في الثامنة والأربعين من عمره ظهر كتابه الرئيس بعنوان : " نقضة الإسلام " ، وذلك ١٩٢٢م بإشراف هـ .

ريكندورف H.RECKENDORF وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات ، ومنها العربية بعنوان : " الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري " ..]

ومن خلال ما سبق عن هذه الشخصية يتضح أن حياته الأولى كانت غامضة ، ولا يعرف أي شيء عن تكوينه الثقافي ؛ مما يشكك في مصداقية ما يقوله ، أما إنتاجه العلمي فلا يعدو مؤلفين الأول منهما نشر في حياته عن مخطوط وحيد رديء ، ومع هذا ظهرت عند المؤلف أخطاء نبه عليها غيره ، والأخطاء لم تكن قليلة ، بل هي كثيرة ، أما الكتاب الثاني فلم ينشر في حياته ، ولما نشر فيما بعد تغير اسمه أكثر من مرة !!

فالشخصية غامضة مجهولة الهوية ، والكتاب الذي تلقفته المكتبة العربية لم ينشر في حياة صاحبه ، ولم يؤثر عن المؤلف شيء سوى تحقيق مخطوط وحيد رديء ، كثرت التصحيحات عليه بعد نشره !!

هذه أمور ينبغي أن توضع في حسان القارئ وهو في بداية المطاف مع هذه الدراسة ، حتى تتضح أمام ناظره مكانة الكتاب الذي حددت الدراسة فصلاً واحداً منه فقط لنقرأه قراءة نقدية فاحصة قدر المستطاع .

بين عنوان الكتاب وعنوان الفصل :

سمي هذا الكتاب في مسوداته الأولى التي تركها " آدم متر " قبل رحيله عن الدنيا باسم : " عصر نهضة الإسلام " ، ثم ترجم إلى العربية وطبع تحت عنوان : " الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري " ، وهذه التسمية عليها عدة ملحوظات ينبغي التعرض لها هنا ، وهي كالتالي :

إن آدم متر نفسه لم يطلق التسمية الأخيرة وهي " الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري " على كتابه ، وما كان ينبغي أن يوضع اسم الكتاب الذي اصطنعه المترجم أساساً وعدّه عنواناً للكتاب في حين لا تبدو أدنى إشارة على غلاف الكتاب لعنوانه الأصلي الذي وضعه صاحبه ، وكان من الأولى - على أسوأ الفروض - أن يوضع العنوان الأصلي ولو بين قوسين ، أو نخط أصغر احتراماً للمؤلف وللعلف على حد سواء، لكن هذا لم يحدث للأسف الشديد !!

إن تسمية الكتاب بالحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لا تتفق مع المادة العلمية الموجودة في ثناياه ؛ حيث يتحدث المؤلف عن أحداث في القرون الثلاثة الأولى - أحياناً - كما يتحدث عن أمور وأحداث بعد القرن الرابع ، بل ربما تعدى ذلك للحديث عن العصر الذي عاش فيه المؤلف

نفسه ، وقد كان يستدل من خلال أحداث قرون عديدة على فكرة طرحها ، ليؤكد فكرته التي آمن بها ، وليس لبيان ما حدث بالفعل في القرن الرابع الهجري ولعل الذي حدا بالمرحوم إلى تغيير اسم الكتاب هو كثرة المعلومات التي وردت عن القرن الرابع الهجري أكثر من أي قرن آخر قبله أو بعده ، وإن كنت لا أراه مبررا كافيا للوقوع في مثل هذا الخطأ .

إن عصر نهضة الإسلام كما يعرفه أهل الإسلام يعني الحديث عن القرون الهجرية الأولى مجتمعة باستفاضة تامة ، مصداقا لقول النبي ﷺ : "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .." (٩).

أو بلغة أدق نقول :عصر الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة هو عصر نهضة الإسلام؛ مصداقا لقوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} (سورة المائدة: من الآية ٣)

فالعصر الذي اكتمل فيه الدين ، وتم تطبيقه تطبيقا شاملا كاملا صحيحا هو بلا شك عصر نهضة الإسلام حقا ، أما القرن الرابع الهجري فهو بداية عصر نهضة المسلمين ؛حيث نهضوا في علوم ومعارف استقوها من مكنوزات الإسلام الثابتة التي اكتملت معالمها في عصر النبوة ، ولم يبق إلا السهر وفق دستورها الراشد القويم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أما ما يتعلق بعنوان الفصل الذي اتخذته هذه الدراسة مجالا للقراءة النقدية ، والمسمى " الأخلاق والعادات " ، فعليه مجموعة أخرى من الملحوظات، لعل من أهمها ما يلي :

لم يوضح المؤلف (آدم متر) المقصود من عنوانه الذي وضعه للفصل العشرين من كتابه عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، وإذا قلنا إن ما ورد من أحداث وأفكار داخل هذا الفصل توضح عنوانه ،فإن ذلك الأمر يوقعنا في حرج شديد ؛حيث اهتم "متر" بسرد جملة من السلوكيات القبيحة في قصور بعض الخلفاء وكبار رجال الدولة ، وسلط عليها الأضواء؛حتى أصبح القارئ يكاد يجزم أن هذا هو محتجج القرن الرابع في صورته الكاملة ، ثم يقع القارئ في حيرة شديدة للغاية بين وصف المؤلف لهذا المجتمع من خلال الواقع والأحداث بالانحلال والتدهور، وبين عنوان الفصل، بل وبين عنوان الكتاب ذاته، وربما ورد تساؤل: هل هذا حقا هو عنوان الفصل الذي وضعه المؤلف؟ أم لحقه التغيير من المرحوم، كما لحق عنوان الكتاب ؟!.

والحق أنه من العسير تغيير عنوان مكون من كلمتين ووضعهما بالمعنى ، وهذا يرجح أن تكون لترجمة لعنوان الفصل ترجمة حرفية .

* لم يستقص المؤلف كل الظواهر الأخلاقية التي كانت في القرن الرابع الهجري ، ويبدو أنه يركز إلا على ما له علاقة بما يحدث في مجتمعه الذي يعيش فيه من مخالفات أخلاقية .
* الاهتمام بشريحة واحدة فقط من المجتمع وهم الخلفاء ، ثم الحديث التفصيلي غير المستقصى عنها .

* ما قاله المؤلف عن الأخلاق من حيث الكم لا يتناسب مع ما قاله عن العادات في هذا الفصل .

* لا يوجد أي رابط في أثناء الفصل بين الأخلاق والعادات .

إن كلمة " عادة " التي تمثل بشكل طبيعي أكثر من نصف الفصل لم تظهر فيه إلا نادراً ، وكان غلب ظهورها في كلام بعيد عن القرن الرابع الهجري على الرغم من أن أغلب ما ذكره المؤلف عن هذا لقرن كان من مسائل العادات ، ويستضع لنا بإذن الله عند التعرض لموضوعات الفصل بشيء من تفصيل والتحليل هذا الكلام بشكل جلي .

وخلاصة القول : إن عنوان الكتاب لا يتناسب مع مضمونه إجمالاً ، وكذلك عنوان الفصل الذي نتاوله بالدراسة لا يتفق والأحداث التي ذكرت فيه ؛ وهذا يخالف الإنصاف والمنهج العلمي لسليم .

موضوعات الفصل - دراسة وصفية تحليلية ك

ذكر " آدم متر " خمسة عشر موضوعاً في هذا الفصل ، وفيما يلي بيان هذه الموضوعات ، وعدد الصفحات التي استغرقها كل موضوع منها ، وتصنيف الموضوع حسب طبيعته ، إن كان عادة أو خلقاً من الأخلاق :

- ١- الخصاء والخصيان : ويشمل ثماني صفحات ، وهو من العادات .
- ٢- الغلمان والغلاميات : ويشمل نحو ثماني صفحات ونصف ، وهو من العادات .
- ٣- المرأة والبغاء : ويشمل نحو تسع صفحات ، وهو من العادات .
- ٤- فحش القول عند الرجال : ويشمل نحو ثلاث صفحات ونصف صفحة ، وهو خلق
- ٥- حب المال : ويشمل نحو صفحة ونصف ، وهو من العادات .

- ٦- ضعف الكرامة العربية : ويشمل صفحتان، وهو من العادات.
- ٧- تعذيب الأسرى والخارجين والمتمردين: ويشمل نحو ثماني صفحات وهو من العادات
- ٨- الفظائع عند تنصيب الخلفاء : ويشمل أربع صفحات ، وهو من العادات .
- ٩- قسوة الحكام : ويشمل نحو صفحة ، وهو خلق .
- ١٠- الانتحار : ويشمل نحو نصف صفحة ، وهو من العادات .
- ١١- المعاملة في السجون : ويشمل صفحة واحدة، وهو من العادات.
- ١٢- الزكاة والصدقة : ويشمل صفحة ونصف صفحة ، وهو من العادات .
- ١٣- تمادي العشاق : ويشمل نصف صفحة وهو من العادات .
- ١٤- العطف على اليتيم : ويشمل سطرين ونصف سطر ، وهو من الأخلاق .
- ١٥- بناء المستشفيات : ويشمل نحو أربع صفحات ، وهو من العادات .

هي موضوعات هذا الفصل المعنون بالأخلاق والعادات، ويلاحظ عليها في النظرة الأولى العجلى
ي:

أولاً : أفكار المؤلف في الحديث عن الأخلاق والعادات غير متوازنة ، ففي حين مثلت
تلاق أربع صفحات ، مثلت العادات نحو إحدى وخمسين صفحة تقريباً ، فنسبة الكلام عن
تلاق إلى الكلام عن العادات تساوي ٣ : ١٥ ، وهذا يدل على عدم وعود توازن بين عنوان الفصل
ضويعه الأساسيين .

ثانياً : بعض الموضوعات في الفصل فيها استطراد كبير ، يصل أحياناً إلى نحو ثماني صفحات
نما لا تكاد موضوعات أخرى تتجاوز أكثر من سطرين ونصف ، فلا يوجد تناسب كمي بين
ضوعات .

ثالثاً : أغلب العادات التي تعرض لها المؤلف في هذا الفصل ذميمة ، والقليل النادر منها محمود
المحمود منها لا يتجاوز الكلام فيه أكثر من ثلاث صفحات ونصف الصفحة ، وربما قل ليصل إلى
واحدة من سطرين ونصف فقط ، أما العادات الذميمة فالكلام فيها يصل نحو ثماني صفحات .

رابعاً : لا يمكن تحديد الموضوعات الرئيسية أو الفرعية في هذا الفصل ؛ لوجود تداخل شديد
ياناً ، أو انقطاع غير منطقي أحياناً أخرى ، ففي حين يبدأ الكلام عن الخصاص والخصيان ثم الغلمان
غلاميات ثم المرأة والبغاء، وهذه موضوعات قد يكون بينها شيء من الترابط من حيث كونها جميعاً

عادات دميعة تتعلق بالرحل والمرأة - مع تحفظاً في قبول تلك الأفكار أو مصداقيتها . يظهر على الجانب الآخر كلام عن السجون ثم الزكاة والصدقة ثم المستشفيات ، ولا يوجد أدنى ترابط بين هذه الموضوعات وبعضها البعض ، وهذا يشير إلى عدم وجود توازن كفي - فضلاً عن الكمي - بين موضوعات الفصل .

خامساً: هذه الموضوعات لا تمثل أخلاق المسلمين جميعاً في القرن الهجري الرابع ، فقد ترك أمتراً عدداً هاملاً من الأخلاق الإسلامية التي تحلى بها مسلمو القرن الرابع الهجري بها ، مثل : الصدق والأمانة ، والعدل ، والإخلاص ، والمحبة ، والتكافل الاجتماعي ، أما هذه الأخلاق التي تعرض لها متر " فهي فضلاً عن قبحها لا تمثل سوى لقطات متناثرة من هنا وهناك ، وهذا يشير إلى ضعف الملاحظة العلمية في هذا الفصل وافتقارها إلى وصف الواقع بأمانة وموضوعية ؛ ولهذا كان المؤلف مضطراً إلى القفز بين القرون المختلفة لاصطياد ما يعضد فكرته ، فهو تارة يلتقط صورة قبيحة من القرن الثالث ، يقفز إلى القرن السادس ، ليلقط صورة أقبح ، ثم يقفز مرة أخرى إلى القرن التاسع ، ليرز صورة ثالثة تم يضم كل ذلك إلى بعضه ليدلس على القارئ، الذي يخيل إليه من سحر المؤلف أن هذه حقيقة محتمة القرن الهجري الرابع !!

سادساً: نسي المؤلف أو تناسى عدداً آخر من العادات الحميدة التي تمثلها مسلمو القرن الرابع الهجري ، والمنبثقة من الإسلام ومبادئه السمحة الراقية ، مثل الملابس والمأكول والمشارب ، والمخالس والمواكب ، والحفلات العامة والخاصة ، وغير ذلك مما تزخر به الكتب التي نقل عنها نقوله ، مما يؤكد بوضوح تام أن آدم متر كان يعنيه بالدرجة الأولى تتبع عورات المسلمين وجمعها في كتاب واحد ؛ لتضخم ويكون مردودها الذي يهدف إليه المؤلف المذكور بالغ الأثر في المسلمين وغيرهم ، ولعل العادات التي ظهرت في مجتمع المؤلف بشكل بارز في حياته هي التي دفعته إلى البحث عن مثيل لها في الشرق الإسلامي ؛ ليرر لنفسه أو لمجتمعها أمراً ما ربما يسهل على القارئ إدراكه .

سابعاً: إذا دققنا النظر قليلاً وحدنا أن كلمة (عادة) التي تمثل صلب كلام المؤلف في هذا الفصل لم تظهر إلا نادراً ، وكان أغلب ظهورها في كلام بعيد عن العصر الذي نحن بصددده ، فالمؤلف على سبيل المثال قد استهل كلامه في بداية الفصل بقوله (ص ١٥٧) : " استلزم العادة في بيوت السادة والكهنة عند الدول الشرقية القديمة في الدولة الرومانية البورنطية أن تها هذه البيوت بالخصيان ،

حرم الإسلام ذلك"، ثم يقول بعد عدة أسطر (ص ١٥٧): "دخل الإسلام حوالي ٢٠٠هـ —
م؛ بسبب تقلص ظل الروح العربية عادات شرقية قديمة".

ويقول بعد عدة صفحات عند كلامه عن فحش القول عند الرجال : "(ص ١٨١ ، ١٨٢) .
من هذا أيضاً شأنه شأن غيره — إلا من أثر سيطرة العادات الشرقية غير العربية التي كانت قبل
لام " ثم لا نكاد نلمح أثراً لكلمة (عادة) بعد ذلك في هذا الفصل سوى مرة واحدة بمعنى الصفة
قال (ص ١٩٠) : " وكان الثوار الذين يؤخذون في الأسر بين المسلمين، يُشْهرون عادة في
على بغال، أو أفيال ، أو على جمل ذي سنامين وهو الأحب".

وعلى الرغم من قلة استخدام لفظ [عادة] في هذا الفصل الذي يتحدث عن العادات ،
ي تمثل الكلمة نصف عنوانه ، فإن الفصل التالي مباشرة وهو الفصل الحادي والعشرين وعنوانه :
ال معيشة " (ص ٢٠٩ : ٢٦٧) تنتشر فيه كلمة [عادة] بشكل كبير، وفيما يلي النصوص التي
ذكر ذلك:

- "ويرجع أصل هذه العادة — عادة اتقاء الحر الشديد بالتزول في السرايب — إلى بلاد آسيا
الوسطى".
- " وكانت عادة الأكاسرة أن يطين سقف بيت في كل يوم صائف ، فتكون قيلولة الملك فيه "
- " وكانت هذه عادة الأمويين أيضاً " .
- " وهذه عادة كانت بالشام " .
- " وكان من عادة الظرفاء اجتناب لبس الثياب ذات الألوان ؛ لأنهم كانوا يعتبرون ذلك من
شأن النساء والأولاد " .
- " وقد حرت العادة دهرأ طويلاً بأن يلوي الغلمان والجواري شعر أصداعهم على صورة حروف
النون [ن] أو على صورة العقرب " .
- " وفي هذه الناحية ظهرت عدا ذلك مجموعة عادات أخرى بعيدة كل البعد عن روح الإسلام
" .
- " وهذه عادة معروفة عند شعوب كثيرة " .
- " وهذه أيضاً إنما كانت حرياً على عادة قديمة " .

• " وإنما ذكر وضع ألوان الطعام بعضها بعد بعض ؛ لأنه كان عادة مستحدثة ، أما العاد الإسلامية القديمة فكانت تقضي بأن يوضع الطعام كله مرة واحدة ؛ ليأخذ كل واحد منه ما يشتهي " .

هذه النصوص توضح كثرة ورود كلمة [عادة] ، أو [عادات] في الفصل المعقود على المعيشة في القرن الرابع الهجري ، وبغض النظر عن تجاوزات " آدم - متر فيه - أقص تجاوزات المنهجية والفكرية - إلا أنه يمكن القول : إن إضافة هذا الفصل الذي أكثر فيه من ذكر لممة (عادة) إلى الفصل السابق عليه كان أولى وأفضل ؛ لتقاربهما في الموضوع ..

وفضلاً عن ذلك ، فإن " آدم متر " عقد فصلاً آخر عن " الأعياد " وهو الفصل الثالث عشر ، ومع ذلك لم يشر " متر " إلى أنه سيفرد فصلاً خاصاً بالأعياد في أثناء كلامه في فصل أخلاق والعادات ، وكان من الأولى بالمؤلف أن يضيف هذا الفصل أيضاً الذي خصه للأعياد إلى فصل الخاص بالأخلاق والعادات . كما أنه لم يقدم تفريقاً بين الأخلاق والعادات وهذا مأخذ كبير عليه

ثامناً : لقد استغرقت بعض الموضوعات من المؤلف ما بين السبع والتسع صفحات ؛ مما يؤكد تمامه بما - وسيوضح للقارئ من خلال هذه الدراسة عدم منهجية المستشرق الألماني آدم متر ، كما تبين كيف يضع المستشرقون سمومهم وسط السطور ، ويخفونها حتى يتجرعها القارئ بعفوية وتلذذ ليكون فيها هلاكه والعياذ بالله ، وسيظهر كذلك مدى التشدد باسم العلم والتراثة العلمية لحولاً مشرقين .

تاسعاً : إن الموضوعات الثلاثة الأولى ، وهي : الخصاء والخصيان ثم الغلمان والغلاميات : لمرأة والبغاء التي تمثل فاتحة كلام المؤلف عن العادات والأخلاق الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، قال " متر " الكلام فيها ، واستطرد كثيراً ، مبتعداً عن جوهر الموضوع ؛ مما يدل على اهتمام المؤلف به ، وقد استوعبت هذه الموضوعات الصفحات من (١٥٧ حتى ١٨١) أي ما يكاد يقرب من نصف عدد صفحات الفصل كله ، وقد اتضح منهج المؤلف فيها ، وكثرت النقول التي ساقها للتدليل على فكرته ، بشكل ملحوظ .

عند إمعان النظر في هذا الفصل تظهر التناقضات التالية :

١ : سوء الاستهلال :

استهل متر كلامه عن الأخلاق والعادات في القرن الرابع الهجري بنقل عن المستشرق سحاو ،
— قول فيه (ص ١٥٧) : " استلزمت العادة في بيوت السادة والكبراء عند الدولة الشرقية القديمة
الدولة الرومانية البوزنطية أن تمياً هذه البيوت بالخصيان . "

والسؤال الذي يطرح نفسه : ما صلة المجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري بالعادة التي
ت سائدة في الدولة الشرقية القديمة أو عند الرومان ؟!

إننا لا نجد عند متر إجابة على هذا التساؤل ، غير أنه يعلق في الحاشية بقوله (هامش (١) ص
(١١) : " وأصل ذلك ديني ، وقد أوجد هذا الجنس الثالث قديماً إرضاء للآلهة ، وقد أنكر محمد عليه
سلام هذه القيمة الدينية التي ادعيت له ، كما أنكرها الفصل الأول من قرارات مؤتمر نيقية " . ثم
مائل :

- أي دين أباح الجنس الثالث — كما يدعي متر — إرضاء الآلهة ؟
- وأي آلهة هذه التي يرضيها تغيير الخلقة بيد العباد ، ثم تبارك ذلك ، وتسميه جنساً ثالثاً ؟!
- وماذا يقال عن الخنثى : هل يقال : هو جنس رابع ؟!
- وما صلة مؤتمر نيقية بالموضوع الذي نحن بصددده ؟
- ولماذا يقول متر : أنكر محمد ؟ ولم يقل أنكر الإسلام ذلك ؟!
- وأي قيمة دينية في إباحة الجنس الثالث هذا ؟!
- ثم إذا كانت هذه هي العادة في بيوت " السادة " و " الكبراء " في الدول الشرقية القديمة وفي
الدولة الرومانية ، فما وجه الشبه بين هؤلاء وبين المسلمين ؟!
- ولو سلمنا بأن الخصيان كانوا ينتشرون في بيوت السادة والكبراء ، فهل يعني ذلك انتشلوهم في
كل البلدان ، أو عند جميع السادة والكبراء ؟!
- وهل يقتصر الكلام عن الأخلاق والعادات على السادة والكبراء فقط دون بقية أفراد المجتمع ؟!
- ويلاحظ أن " متر " قد قرر — بعد عدة فقرات — أن اليهود يحرمون الخشاء في شريعتهم ،
يتكرر فعل بعضهم له مع تحريم ديانتهم لذلك ! فإذا كان اليهود قد حرموه ، والنصارى امتداد

لليهود ، فهو بلا شك سيكون محرما عندهم، ثم لأن الإسلام حرمه، فماذا يعني قول متر: " وأصل هذا ديني " ؟

إنها بداية - كما قلت - غير موفقة؛ لعدة أسباب ، لعل من أهمها السببان التاليان :

السبب الأول : إن المؤلف لم يدخل في صلب الموضوع مباشرة ، وإنما قدم له مقدمة تاريخية يثبت الفكرة التي طرحها في ذهن القارئ ، وهي أن الخصاص من العادات الموجودة عند المسلمين في القرون لرابع الهجري ، مع أن الأدلة التاريخية التي ساقها لتأكيد فكرته كانت قليلة وفي غير موضعها .

السبب الثاني : أن منهج متر في تفسير أحداث التاريخ قد بدا واضحا منذ البداية ، حيث انطلق من عالمه ومجتمع الذي يعيش فيه بما فيه من متناقضات ، إلى المجتمع الإسلامي ، فصنع عليه أخطاء بمجتمع ، ثم انطلق يبحث عن أدلة تعينه على تحقيق هدفه المنشود .

ثانيا : تفكك الأفكار وعدم ترابطها :

قد يقع القارئ لأول وهلة في شك المؤلف الذي يتكلم عن الأخلاق والعادات في واحد من أنصع قرون الإسلام ^(١) من الناحية الحضارية ، لكن القارئ يصطدم بعد قليل بكم هائل من المعلومات المتراسة جنباً إلى جنب، وليس بينها سوى رابط واحد أنها تحت عنوان واحد ، أما منطق العرض ومنهجية التفكير ، والمقدمات التي تسلم إلى نتائج ، فهذا ما يفتقر إليه أسلوب المؤلف الذي بين أيدينا . والدليل على ذلك هو ما قاله متر عن (الخصاء والخصيان) ، حيث جاءت الأفكار في داخل غير مترابطة ، فالمؤلف يتكلم عن عادة الخصاء تارة، ثم عن عادة الخلفاء المسلمين في القرن الثالث الهجري تارة أخرى، ثم يعود للكلام عن عادة الخصاء عند اليهود والنصارى ، ثم ينتقل بين القرون. فيتكلم عن القرن السادس الهجري ، ثم القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري) ، ثم يرجع للقرن الخامس الهجري ثم ينتقل إلى أعمال الخصيان في الكنيسة، ثم ممارسة اليهود في فرنسا لتلك العادة، ثم يتكلم عن صفات الخصيان وأخلاقهم ، ثم معنى الخصي في اللغة ، ويعود مرة أخرى إلى صفاقم ... فلا تكاد تبعد نفسك أمام فكرة مترابطة على مستوى الموضوع الواحد، بل ترى هذه الملحوظة أمامك في كل موضوعات الفصل فضلا عن الكتاب كله الذي يحوي تسعة وعشرين فصلا .

ومع كل هذا ، فإن القراءة النقدية واجبة لأن النص الذي يتداوله العالم العربي الإسلامي باللغة العربية هو ترجمة أبي ريدة ، فالتقد موجه إلى النص العربي أولا ، وبالأحرى إلى المترجم ، فإن كانت الترجمة صحيحة ومطابقة لما قاله متر، فالتقد موجه لـ متر أيضا ويبدو أن جانبا لا بأس به من كلام متر قد

م على حقيقته ؛ فالنصوص التي جاءت للاستدلال توضح بجلاء ما كان يهدف إليه هذا المستشرق .
كلام " بدوي " الذي سبقت الإشارة إليه من كون " أبي ريذة " جاء بترجمة غير متسقة لا يعيبها هنا ؛ لأن " بدوي " لم يترجم حملة واحدة من كتاب " متر " الأصلي ، ثم يقارن بينها وبين ترجمة " ريذة " ، كما لم يحدد الترجمات الأخرى التي أشار إلى وجودها ، وطالب المثقف العربي بالرجوع ، فنحن أمام ترجمة وحيدة بالعربية ، ويصعب على المثقف العربي أن يتعلم اللغة الألمانية مثلاً من الاطلاع على النسخة الأصلية كما أن نفعه في هذه الدراسة هو النظر إلى ما بين أيدينا والحكم بتجرد وموضوعية .

وعندما تكلم متر عن (الغلمان والغلمايات) لم تسعفه المادة العلمية ، فكان يضم أفكاراً متسلسلة بطريقة منطقية جنباً إلى جنب ما دامت هذه الأفكار تندرج تحت مريض واحد ، فهو ث عن عادة ارتداء الجوارى لملايس الخدم وانتشار هذه العادة منذ القرن الثالث الهجري ، ثم ينتقل لكلام عن عدم أهمية هذه العادة في ظل سيادة الروح العربية ، ثم ينتقل الحديث عن عدم تعرض بهاء في القرن الرابع الهجري للحديث عن عادة اللواط ، ثم يتكلم عن الشعراء الذين يتولون الشعر في شأن تشبيهاً بهم ، ثم يذكر أماكن في العراق خاصة باللهو ، ثم يحكي قصة عن الحاكم بأمر الله لمي ، ثم يسرد قصصاً غرامية في الولوع بالغلماين ، ثم يرجع مرة أخرى ليذكر موقف بعض العلماء الطلاب غير الملتحين ، وهذا التنقل غير المنطقي يوضح بجلاء عدم الترابط بين الأفكار التي يضمها ان واحد . وقد يكون (أبو ريذة) مترجم الكتاب إلى العربية قد بتر ترجمته للنص الأصلي ، مما جعله متسلسل بطريقة منطقية ، غير أن التسلسل المنطقي لعرض الموضوع لا يعني ترابط الأفكار ، وبالتالي الرحلين (أبو ريذة ومتر) غير موفقين .

وحين انتقل إلى الكلام عن (البغاء) ظهر بوضوح التكرار وعدم الترابط بين الأفكار ، فهو كر عدة أفكار مرتبطة بموضوع البغاء هي : البغاء وإنكار الإسلام له . وعضد الدولة بترك البغاء شراً ؛ ويفرض الضرائب عليه . والفاطميون يفعلون مثل ذلك . وعضد الدولة والأميرة جميلة مدانية . والبغاء في اللاذقية والسوس . والحنابلة يطاردون المنكر . وواجب المحتسب عند الماوردي . روم المرأة بينها . والحاكم بأمر الله . وأثر البغاء في الأسباب وفي الإيطاليين . والفصل بين الأسرة لأغراب . وظهور الخطايا . وتعليل لسلطان الرجل على المرأة في مصر . ومطالبة المرأة بالوظائف . ساء عاملات بالدين : أم الواحد وأم الفتح وحواز قضاء المرأة . وتفضيل الطبقة الوسطى الزواج احدة ، حظية المعز لدين الله الفاطمي . والتعدد عند الكبراء كان من طريق اتخاذ احواري . والزوجة

الأساسية تسمى الحرة . وسب حظوة الإمام ، وزواج الأرامل وكرهيته ، وسب الفحش في أمر الجنوب ليس مجرد انفصال النساء عن الرجال بل هو هيء غير عربي ، العربي أعف وأظهر من غيره .
وبتضع من الأفكار المختلفة السابقة أن المؤلف تقلب بين أفكاره غير المتسقة ، ولم يكن منهجياً في عرضه .

ثالثاً : تكرار الأفكار في مواضع متفرقة :

لقد كانت فكرة الخصاء والخصيان تلح على ذهن المؤلف بشكل كبير ، ويحاول تأكيدها بأي طريق ممكنة أو غير ممكنة ، لذلك أخذ يكرر أفكاره بأساليب مختلفة وهذا التكرار يعد عيباً منهجياً خطيراً ، لم يكن له ما يبرره ، وأما الإلحاح على فكرة الخصاء بغرض تأكيدها ، وجعلها ظاهرة ضخمة القرن الرابع الهجري ، فهو أمر ضد الأمانة العلمية والحيادية التي ينبغي أن يتحلى بها الباحث في بحـر الفكر عموماً ، ويؤكد ذلك ما يلي :

- فقد تكلم " متر " عن حصول المسلمين على الخصيان من اليهود والنصارى أو عن طريق الغزو في أكثر من موضع .

- وتكلم عن قيام اليهود بعملية الخصاء في ثلاثة مواضع متفرقة ، ولو جمعها في موضع واحد لك أجدى وأفضل ، ولنفاذ التكرار ، فقال مرة (ص ١٥٨) : " تاركين لليهود والنصارى إثم هـ الفعل الشنيع " ، وفي موضع آخر (ص ١٥٩) قال : " أما الخدم الصقالية فكانوا يجلبون إلى مدينة نجا ... - يعني الخصاء - ... أهلها يهود " وفي موضع ثالث (هامش ٥ ص ١٥٩) قال : " وكذلك كـ يهود فرنسا يمارسون الخصاء " .

- وعندما تكلم عن صفات الخصيان الخلقية، فرق الكلام في أربعة مواضع ، ففي موضع (١٦١) قال : " وقد اشتهر الخصيان بالصر .. " وفي موضع ثان (ص ١٦٣) قال : " وقد عرفوا الشرق بـ الواحد منهم لا يصلح .. " ، ثم يقول مرة ثالثة (ص ١٦٣) : " ومن صفاتهم التي يختصون بها " ، وفي موضـ رابع (ص ١٦٤) يسوق كلام ابن حوقل والجاحظ في صفاتهم المختلفة .

- وعندما تعرض لموقف الإسلام من عملية الخصاء ، ذكره في مكانين متباعدين ، قال في الأول بصـ التقرير (ص ١٥٧) : " وقد حرم الإسلام ذلك ، وشدّد القرآن وشددت السنة في تحريم حصـ الإنسان أو النائم " ، وقال في الموضع الثاني (ص ١٥٧) مستنكراً شراء المسلمين للخصيان : " رغم حاء به النبي عليه السلام في شأنها من الإنكار والمنع الصريح " .

- إن تكرار الأفكار عند "متر" لا علاقة له بقضية الترجمة من الألمانية إلى العربية أو أي لغة أخرى، فالترجم قد يخطئ في كلمة أو جملة، وربما كان تعبيره وركيبكا، حيث يرجع ذلك كله إلى مدى منه من اللغة التي يترجمها، وكذلك اللغة التي ينقل إليها، لكن هذا الأمر يختلف تماماً عن وجود عدة نوص بأكملها، تعطي في محمله مجموعة من الأفكار المتناقضة.

هأ : التناقض في الأفكار :

إن أول تناقض وقع فيه المؤلف هو قوله عن عملية الخصاء إن أصلها ديني؛ لأنه ذكر بعد ذلك اليهود يحرمون هذه العملية كما ذكر أن الإسلام يحرمها، بل استنكر على اليهود فعلهم لما مع ريم ديانتهم لها، فلم يعد لنا "متر" أي الديانات إذن تعده من شريعتها !

ومن صور التناقض أيضاً قول المؤلف (ص ١٥٨) : " وقد اجتال المسلمون للإفلات من حرمة منع الخصاء بأن كانوا يشترون الخصيان ، تاركين لليهود والنصارى إثم هذا العمل الشنيع " ثم قوله علقاً (هامش ص ١٥٨) : " على أنه من الغريب في هذا الباب أن اليهود كانت شريعتهم كانت تحرم عليهم خصاء الخيل والثيران ، حتى كانوا يضطرون إلى ابتياع الثيران المخصية من النصارى "

وقبل التعليق على النقلين السابقين أود لفت الانتباه إلى أن عنوان الفصل هو " الأخلاق والعادات " ، فما صلة اليهود بأخلاق وعادات المسلمين ؟ وما صلة الثيران المخصية بالمسلمين ؟! إن أول ما يثير الاستغراب هو الحكم على المسلمين بالاحتيال دون دليل واضح على ذلك في الوقت الذي يعتذر فيه لليهود ويعددهم في حالة اضطرار لشراء الثيران المخصية ؛ لأن شريعتهم لا تبيح لهم خصاءها !! علماً بأنه أكد أن شريعة الإسلام لا تبيح ذلك أيضاً .

ولقد قرر " متر " في موقع آخر أن المسلمين كانوا يبدلون أموالاً طائلة للحصول على الخصيان ، فهل كان المسلمون يسعون لدفع أموال باهظة يخالون بها في الحصول على الخصيان ؛ لأن شريعتهم منعت الخصاء ؟ في حين أن الحيلة غير المشروعة لعمل مشروع لا تقبل في الإسلام ، وبالتالي فإن خصاء الغلمان بعد شرائهم أوفر لمن يريد ذلك ، ما دام محتالاً !! .

وحدير بالذكر أن شراء الخصيان لم يكن الطريق الوحيد للحصول عليهم - كما قرر المؤلف

نفسه .

وعلى الرغم من كل هذا ، فإن شراء الخصيان أو غيرهم في ذلك الوقت ليس منقصة ، بل كانت في حق المسلمين مكرومة ؛ لأنهم ما يلبثون أن يعتقوهم .

ومن صور التناقض أيضاً : ما ذكره متر عن امتهان العوام للخصيان والاستهزاء بهم ، مستند على ذلك بقول المسعودي ^(١١) " إن العوام كانوا يستهزئون بالخدم السودان في الشوارع ويصيحون ويقولون : يا عقيق ، صب ماء ، واطرح دقيق ، يا عاق ، يا طويل الساق " (ص ١٦١) .

ثم ذكر أن المسلمين كانوا يطلقون عليهم أسماء تدل على التوقير والاحترام ، مثل : الأستاد ، والشبح ، والمعلم ، والخدام ، وأكد في موضع آخر أثر الخصيان السياسي ، ومدى تسلطهم على الملك والولاة في بعض الأحيان ، بل ساق أسماء قواد شجعان منهم من كان يشار إليه بالبنان ، مثل : فـ ^(١٢) قائد السامانيين ^(١٣) ، وممل ^(١٤) القائد البحري صاحب الانتصارات بطرسوس ^(١٥) ومن أقوال (ص ١٦٣) : " ولم يكن يتمتع بثقة عضد الدولة ^(١٦) - مع قلة ثقته ، وشدة تحيره وقسوته على الرعية - إلا غلام حصي أسود يسمى شكراً ، فقد كان مستولياً على جميع أموره " . وقال (ص ٦٤) " وكان أبو الفتوح برجوان ^(١٧) خادماً أبيض حصياً ربي في دار الخليفة العزيز بالله ^(١٨) وولاه أمر القادس " .

أما عن استهزاء العامة بالخصيان والاستدلال بقول المسعودي ، فإن كلام المسعودي لا يشهد إلى أن الخدم هم الخصيان ، بل إن المسعودي بين سبب تندر العوام بالخدم حين وصفهم بالسوداء فربما كان لونهم وحر كائهم وشكلهم العام من أسباب التندر بهم ، مع التأكيد على أن الإسلام لا يقبل الاستهزاء بالآخرين مهما كانوا ؛ لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى يكون خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن) (سورة الحجرات: من الآية ١١) .

وفضلاً عن ذلك فإن ما حكاه المسعودي لا يمثل خلق المجتمع الإسلامي كله في القرن الهجري الرابع ولا يعد من عادات هذا المجتمع .

وفرق بين قول المسعودي " العوام " ، وبين إطلاق متر الحكم على جميع المسلمين .

ومن صور التناقض أيضاً ما ذكره متر (ص ١٦٥) عن استحسان الخليفة الأمين (سنة ٢٠٠ هـ) الخواري ، واحتذاب قلبه إليهن ، حتى إنه " أبرزهن للناس من الخاصة والعامة ، فاتخذ الناس الحر المظموات والبسوهن الأقبية والمناطق وسموهن بالغلამيات " .

وهذا الكلام يتناقض تماماً مع ما قاله متر من قبل (ص ١٥٧) عن الخليفة الأمين هذا من أن " لما ملك ، بلغ من كلفه بالخصيان أنه طلبهم وابتاعهم وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره وفـ

ه وشرا به وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضاً سماهم الجرادية ، وفرضاً من الحيطان سماهم العرايبة ،
من النساء الحرائر والإماء حتى رمى بمن ، وحتى قال أبو نواس^(١٩) ساخراً :

يا جميع المسلمين	أحمدوا الله جميعاً
ربنا أبق الأئمة	ثم قولوا لا نملوا
صير التعين ديناً	صير الخصيان حتى
بأمر المؤمنين	فاقتدى الناس جميعاً

إذا كان الأمين قد تأثر بالخصيان حتى ملكوا عليه أمره ونهيه ، ثم تأثر بالجواري حتى جعل العامة
كون طريقته في جعلهن يرتدين الأقبية والمناطق ، فهو إذن خليفة غارق في المحون ، لا يصلح لقيادة
، وهذا التناقض في الشخصية غير مقنع لشخص ولاه أبوه هارون الرشيد ولاية العهد قبل أن يموت
ثم إن الحقائق التاريخية لا تؤخذ من شاعر يستخدم في شعره - مثل غيره - غالباً عنصر المبالغة ،
غلب الظن أن هذه التهم التي ألصقت بالخليفة الأئمة ، ألصقتها الفرس به باعتباره خليفة عربي أباً وأماً
أو لتبرير قتله ، وتولية المأمون ، ويؤكد هذا الظن أن الخليفة الأمين مكث في خلافته نحو أربع سنين
بانت سنوات صراع مستمر مع أخيه المأمون ، انتهت بمقتل الأمين في بغداد .

تامساً : الاستدلال بما قبل القرن الرابع أو بما بعده :

استدل متر على وجود الخصاء في القرن الرابع الهجري بدليل من القرن الثالث الهجري ، حيث
كر شغف الخليفة الأمين بالخصيان وسعيه في طلبهم ، فقال (ص ١٥٧) : "دخل على الإسلام حوالي
عام ٢٠٠هـ - ٨١٥م بسبب تقلص ظل الروح العربية عادات شرقية قديمة .. " ، فالتص صريح في
ثبات الزمن وهو بداية القرن الهجري الثالث ، ثم هو صريح أيضاً في أنها عادة وافدة وليست من
لعادات التي نشأت في أفكار المجتمع الإسلامي .

ثم انتقل إلى ذكر خبر من القرن السادس الهجري يوضح فيه أن عملية الخصاء كانت تحدث في
مدينة هدية بالحشة النصرانية ، فقال (ص ١٥٨) : "وقد جاء في خبر يرجع إلى القرن السادس
الهجري [الثاني عشر الميلادي] أن مدينة هدية^(٢٠) بالحشة النصرانية هي التي كان يداوي بها الخصيان
دون غيرها من بلاد الحشة " ، فالخبر بعيد عن القرن الرابع الهجري ، وعن المجتمع الإسلامي كله ، فلا
ندري لم ساقه متر هنا ؟؟

والأعجب من هذا انتقاله بعد ذلك إلى القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري إلى ديرين قطين في صعيد مصر كانا يقومان بعملية الخصاء ، وكان دخلهما الأساسي من هذه العملية ، فقال (ص ١٥٨) : " على أنه في أوائل القرن التاسع عشر كان في الصعيد بمصر ديران قبطيا دخلهما الأساسي مصدره الخصاء ... " ، فهذا الخبر أيضاً لا صلة له بالقرن الرابع الهجري و بالمسلمين ، وإقحامه هنا ليس بذی قيمة ، ويفقد الباحث مكانته في البحث العلمي ، وهو استطراد محض ، وبعد عن حقيقة البحث العلمي .

ومن صور الاستدلال بما قبل القرن الرابع الهجري قول آدم متر (ص ١٦١) : " وحده في عام ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ م أن وجد الخليفة المعتضد ^(٢١) خادماً أسود عشية الجمعة برقعة إلى ابن حمدون ^(٢٢) " .

وتحدث آدم متر (ص ١٦٥) عن ظهور "عادة جديدة تستلفت النظر وهي لباس الخادما بوب الخدم" فذكر (ص ١٦٥) حكاية عن المسعودي ^(٢٣) أنه " لما أفضى الأمر للأمين قدم الخد وأثرهم ورفع منازلهم ، فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم ، اتخذت الجواري المقدودا الحسان الوجوه ، وعممت رؤوسهن ، وألبستهن الأقبية والمناطق ، فماست قدودهن ، وبرزت أردافهن ، وبعثت كمن إليه ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن " واحتذين قلبه إليهن " . وقال أيضاً (ص ١٦٥) : " وكانت عريب المغنية المشهورة ، وهي في سن سبع عشرة ، وصيفة للأمين ... " . ومعلوم الخليفة الأمين كان قد تولى الخلافة في مستهل القرن الثالث الهجري .

ثم انتقل متر إلى موضوع آخر سرد فيه قصة أحمد بن كليب النحوي ^(٢٤) المتوفى عام ٤٢٦ هـ ، مسياً ولع هذا الرجل الشديد بالغلما ن الذي أدى في النهاية إلى وفاته ، وهي قصة منقولة عن رجل من القرن الخامس الهجري الذي توفي فيه ابن كليب ، وهذا يدل على عجزه عن إعطاء القارئ ما يقنع بالفكرة من خلال أحداث القرن الرابع الهجري .

وما من شك في أن استدلال متر بأحداث من القرنين الثالث والخامس الهجريين لأكثر دليل على افتقاره للمادة العلمية التي يريد إثبات حقيقة ما بها ، كما أنه دليل على عدم موضوعيته ، وعـد مراعاته للأمانة والدقة العلمية ، وهذا يدل على عجزه عن إعطاء القارئ ما يقنعه بالفكرة من أحداث القرن الرابع الهجري .

استطرد " متر " في الكلام عند (الخساء والخصيان) ، فشرّق وغرّب ، وتقل بين أزمّة ، ولم يبدأ كلامه من " القرن الرابع الهجري " - وهو صلب الموضوع - إلا بعد ثلاث صفحات بث ذكر لفظ " القرن الرابع الهجري " صراحة ، في الهامش وليس في صلب الموضوع ، وفي أثناءه عن بطريركين خصيين ، وقال (هامش ٤ ص ١٥٩) نقلاً عن يحيى بن سعيد النصارى: " لم يكن بيان في الكنيسة الأرثوذكسية يقومون بمهمة الغناء فقط ، بل كانوا يستطيعون أن يصيروا قساوسة لافاً لما كان عليه الحال في الكنيسة اللاتينية ، وفي أوائل القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي بطريركان خصيان منصب بطريرك على القسطنطينية ذاتها أحدهما بعد الآخر " . وهذا يدل على ، واضح في منهج العرض الذي استخدمه " متر " كما يؤكد أن الاستطراد لم يكن في موضعه ، لم يقدم تمهيداً ، أو يفسر موضوعاً ، إنما كان يرص مجموعة من النقول المتناثرة التي لا تربطها إلا بـ واحد هو أنها تحت موضوع (الخساء) .

وذكر آدم متر تقسيم كل من المسعودي والمقدسي للخدم ، فقال (ص ١٥٨ ، ١٥٩) : " سم المسعودي ^(٢٥) الخدم إلى أربعة أنواع : السودان والصقالبة والروم والصين " ، ولم يبين أن الخدم هم الخصيان ، ثم استطرد مرة أخرى فقال (ص ١٥٩) : " ويذكر المقدسي ^(٢٦) أن خدم البيض صنفان : ١ - الصقالبة ، وبلدهم خلف خوارزم ، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس ، حصون ، ثم يخرجون إلى مصر . ٢ - الروم ، وهم يقعون إلى الشام وأثور ، وقد انقطعوا باب الثور . وهذا كله استطراد في غير موضعه .

واستمر متر في الاستطراد ، فذكر في الحاشية رأي ابن حوقل ، ثم كلام الجاحظ في عملية صاء ، فقال (هامش ٣ ص ١٥٩) : " ونحكي ابن حوقل أيضاً ^(٢٧) أن جميع من يسى إلى خراسان الصقالبة فهو يبقى على حاله من غير خساء . وكان يجلب من الأندلس إلى جانب الغلمان والخوانساريين يسون من إفريقية وحليقة الصقالبة الخصيان أيضاً . ويقول الجاحظ ^(٢٨) : إن الخصي يعرض لـ قطع ذلك العضو تغيير الصوت حتى لا يخفى على من سمعه أنه خصي " .

ومن صور الاستطراد ما ذكره آدم متر عن ممارسة النصارى لعملية الخساء ، وعن سب صاء الروم لأسانهم ، وعن كيفية حصول المسلمين على الخصيان ، وعن مهام الخصيان في الكنيسة ، عن ممارسة اليهود للخساء ، وعن عملية الخساء نفسها ، وعن ولد الخصي ومصيره في الفقه الإسلامي

، وعن ثمن الخصى .. إلى غير ذلك من الأمور التي لا صلة لها بالقرن الرابع الهجري ، أو بالمجتمع الإسلامي في ذلك الوقت .

فمن ذلك قول متر (ص ١٥٩) : " أما الخدم الصقالبة فكانوا يجلبون إلى مدينة خلف بجانه هي بسبينا / العاصمة القديمة لإقليم البيرة ، أهلاً يهود ، وكانوا يقومون بخصائهم " ، ثم يعلق على ذلك (هامش ٥ ص ١٥٩) قائلاً: "وكذلك كان يهود فرنسا يمارسون الخصاء ، وكان يهود فردان يبرو خاص مشهورين بذلك " .

ومن العجيب أن يهود البيرة ، أو يهود فرنسا كانوا يمارسون الخصاء - كما يقرر متر - ومن ذلك لم يره يقول عنهم "احتالوا" ، أما عندما تحدث عن المسلمين قال (ص ١٥٨) : " وقد احتال المسلمون للإفلات من حرمة منع الخصاء بأن كانوا يشترون الخصيان ، تاركين لليهود والنصارى إثم هذا العمل الشنيع " .

سابعاً : الإلحاح على فكرة تأثير المسلمين بالعادات الشرقية :

أراد متر منذ بداية حديثه أن يؤكد أن عادة وحود " خصيان " في بيوت السادة والكم كانت عند الدول الشرقية القديمة ، وفي الدولة الرومانية حتى يضي على هذا الموضوع شيئاً من الاحتر والتقدير ، وحتى لا يستشع القارئ سلوك بعض المسلمين الذين كانوا يجلبون الخصيان لمنازلهم ، وهو من انحراف الفطرة والعباد بالله ، فقال (ص ١٥٧) : " استلزمت العادة في بيوت السادة والكم عند الدول الشرقية القديمة وفي الدولة الرومانية البوزنطية أن تمياً هذه البيوت بالخصيان " وقال في موض آخر (ص ١٥٧): "دخل على الإسلام حوالي عام ٢٠٠ هـ - ٨١٥ م ، بسبب تقلص الروح العربي عادات شرقية قديمة ... " .

وقال (ص ١٥٩) نقلاً عن يحيى بن سعيد : " وسألت جماعة منهم : كيف يخلصون فتحصل لي أن الروم يسلون أولادهم ويحزروهم على الكنائس ؛ لتلا يشغلوا بالنساء ، وتؤذيهم الشهوة وكان المسلمون إذا غزوا أغاروا على كنائسهم ، وأخرجوا الصبيان منها " . وكلام " متر " هنا يؤكد المسلمين لم يقرءوا إثم الخصاء ، الذي يضي متر هنا عليه صفة الاحترام في الوقت الذي وصفه موضع آخر (ص ١٦٠) بالصنيع الشنيع !!! .

وفي هذا النص الأخير المنقول عن يحيى بن سعيد النصراني يلح متر على أن الروم كانوا يفعل ذلك لغرض ديني ، فالهدف الذي يسعون إليه هدف نبيل ، وتؤكد هنا أن الإسلام لا يتفق مع الفكر

الميكافيلي ، الذي يرى أن الغاية تبرر الوسيلة ، بل الغاية في الإسلام لابد أن تكون نبيلة ، كما أن الوسيلة لابد أن تكون كذلك ، لكن " متر " يحاول أن يضيف على عملية الخصاء صفة القداسة والكرامة، لذلك نغده في موضع آخر (هامش ٤ ص ١٥٩) يقول: " لم يكن الخصيان في الكنيسة لأرثوذكسية يقومون بمهمة الغناء فقط ، بل كانوا يستطيعون أن يصيروا قساوسة ، خلافاً لما كان عليه الحال في الكنيسة اللاتينية " .

ويستمر آدم متر (ص ١٦٢) في التركيز على أن الخصيان هم مكانة مرموقة في مجتمعهم، وأنهم يرتقون إلى أعلى المناصب ، وأن من بينهم قواد شجعان مثل : مؤنس القائد ^(٣١) ، وكذلك سائق قائد السامانيين .

أخيراً : تأخر الاستدلال من القرن الرابع :

سبق القول : إن أول نص ورد فيه اسم " القرن الرابع الهجري " كان بعد ثلاث صفحات ، وكان في الهامش ، وفي كلام عن بطيريكين حصيين ، ثم استمر متر متجاهلاً الحديث عن هذا القرن نحو صفحتين أخريين ، فبعد خمس صفحات من بداية الموضوع في كلام مضطرب عن الخصيان والخصاء ، ومن قام بفعله ، وكيفيته ، وصفات الخصيان ، وتنقل بين القرون لاحقه على القرن الرابع وسابقه عليه ، صرح " متر " أخيراً باسم القرن الرابع الهجري في متن الكلام ، وعرض شواهد محددة منه ، فقال (ص ١٦٢) : " وبالجملة ظهر من بينهم قواد شجعان : وإذا كان عند الروم منهم في القرن الرابع الهجري مارسيس وسلمون ^(٣٢) ، فقد كان عند المسلمين مؤنس القائد ، وكذلك فائق قائد السامانيين ، فكان أيضاً حصياً ، وكان مثل هو القائد البحري صاحب الانتصارات بطرسوس ، كما كان عند الروم الأمر نكتاس الذي انتصر على صقلية ^(٣٣) ، فقد كان حصياً أيضاً ، وفي الحرب البحرية التي وقعت بين أسطول الفاطميين وأسطول الخليفة عام ٣٠٧ هـ - ٩١٩ م كان الأميران اللذان توليا القيادة حصيين " . ويلاحظ على هذا النقل ما يلي :

أولاً : الخصيان في الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري كانوا في موقع الصدارة ، فهنا القائد العام ، والقائد البحري ، ، وهذا يؤكد أنهم كانوا رعايا لهم شأن في دولة الإسلام .

ثانياً : الكلام عن الخصيان في هذا الوقت - وهو القرن الرابع الهجري - لا يبين شيئاً من الأخلاق أو العادات ، وهو هذا يعد كل البعد عن عنوان الفصل .

ثالثاً : عملية الخصاء لم يقوم المسلمون بفعلها ، لا في القرن الرابع الهجري ، ولا قبله ، ولا بعده .

رابعاً : لم نر في القرن الرابع الهجري من سحر من القواد الخصبان، غير ما ذكرته كتب الأدب ولم يرد عند متر - عن سحرية المتني من كافر الأخشيدي ، وكان ذلك بسبب الوحشة التي حدثت
بهما وأدت إلى خروج المتني من مصر وهجانه لكافور^(٣٢)

سأ : غمز الخلفاء والعلماء والأمراء :

لقد تكلم متر عن الخليفة الأمين ناقلاً كل ما يشين شخصيته ، من اهتمامه بالعلماء
لغلاميات والشفف بهم ، إلى تقريبه الخصبان والولع بهم ، بل نقل سب أبي نواس لـه ، متغافلاً
سب الذي دفعه لذلك ، والذي أدى إلى حبسه ؛ بعد أن بلغ الخليفة الأمين عن أبي نواس تصريحه
بندقة ، فضلاً عن بحونه وخلاعه . وكان ينبغي على متر أن يدرك أنه لا يؤخذ بقول خصم في
صمه ، وبخاصة في مثل هذه الحالة . ونص الرواية التي بترها متر ؛ ليغمز الخليفة هو - كما أورده
لمري : " ولما طال حبس أبي نواس قال في حبسه " ^(٣٣) ثم ذكر الشعر الذي نقله متر ، وسبقت
شارة إليه .

أما ما ذكره " متر " عن الحاكم بأمر الله الفاطمي (ص ١٦٨) ، فهو نقل عن يحيى بن سعيد
صرائي ، يقول فيه : " ويحكى عن الخليفة الحاكم بأمر الله بمصر أنه عن له في أثناء ركوبه بالليل
في سحيف ، فكان يأمر أحد رجاله بأن يأتي شيخاً تخلعاً بمشهد منه ومن الجمع الحاضر ، ويضحك
هذا المنظر القبيح ويطرب له " .

وإذا كنا لا نقر الحاكم بأمر الله الفاطمي على فعله هذا أو غيره من الأفعال التي اشتهر بها ، إلا
الملاحظ هنا هو قول متر عن الحاكم (الخليفة) ، وهذا ما لا يوافقه عليه السيوطي في مقدمة كتابه
ريخ الخلفاء ^(٣٥) ، حيث لم يذكر الفاطميين ضمن الخلفاء المسلمين ، وسماهم العبيديون ، نسبة إلى
يد الله المهدي الذي ادعى نسبه بآل البيت . ثم إن متر لم يجد من العبيديين (أو الفاطميين) من يتكلم
بهم سوى الحاكم بأمر الله الذي تؤكد كتب التاريخ أن حياته في الحكم مرت بأربعة أدوار
بأينة ، اضطربت فيها سياسته بشكل كبير ^(٣٦) ؟

أما عن غمز العلماء فقد ذكر متر مجموعة من القصص في هذا الشأن ، تشير إلى اتهام العلماء
لتولع بالعلماء ، وهذه القصص ذكرت على النحو التالي :

- " وقد كان التولع بالعلماء سبباً في قصص غرامية شيقة فيحكى عن أبي عبد الله بن محمد
مطويه المتوفى عام ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م ، و كان عالماً بالعربية واللغة والحديث ، أنه كان بينه وبين محمد

بن داود الأصمهباني الفقيه - صابئ المذهب - المسمى باسمه ، مودة أكيدة ، وتعاف تام ، وكان ابن داود يهوى أبا الحسن محمد بن جامع الصيدلاني ، هوى أفضى به إلى التلف ، فدخل عليه رجل في مرضه الذي مات فيه ، فقال له : يا سيدي ما بك ؟ فقال : حب ما تعلم أورثني ما ترى !!! ثم قال : حدثني سويد بن سعيد الخدثاني عن أبي يحيى القنات عن مجاهد عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم : " من حب فعف وكنم ، ثم مات ، مات شهيداً " . ثم مات من ليلته في عام ٢٩٧ هـ ، فيقال : إن نفطويه^(٢٧) تفجع عليه وحرع حرعاً عظيماً ، ولم يجلس للناس سنة كاملة " .

ويلاحظ أن أحداث القصة كانت في القرن الثالث الهجري ، كما أن حزن الصديق على صديقه مدة من الزمن والتفجع عليه ليس فيه أدنى غصاصة ، أما كون موضوع الولع بالفلمان تب في ظهور (قصص شيقة) ، فلا ندري لمن تكون هذه القصص شيقة ؟ فالمسلم السوي الطبع لا يتشوق إلى الساقط من القول ، فضلاً عن الاستماع إليه أو التلذذ به .

أما الحديث المذكور هنا فقد ورد في كتاب ذم الهوى لابن الحوزي فقط ولا وجود له في كتب السنة الصحيحة ، ولعله ضعيف ، فإن ابن الحوزي لم يحكم عليه ، أو يعزه إلى غيره من العلماء ونقطه عنده : " حدثنا سويد بن سعيد الخدثاني قال : حدثنا علي بن مسهر عن أبي يحيى القنات عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : " من عشق وكنم وعم فمات فهو شهيد " ، ثم أورده بالفاظ متقاربة منها ما هو من طريق مجاهد ، ومنها ما هو من طريق عكرمة ، مثل قول ابن الحوزي : " وبالإسناد قال : حدثنا الزارع ، حدثنا محمد بن خلف حدثنا زكريا بن يحيى الكوفي ، حدثنا محمد بن حريث عن مطر عن أبيه عن أبي سعيد البقال عن عكرمة عن ابن عباس قال : " من عشق فعف فمات دخل الجنة " ، وقد ورد معنى (كنم) عند ابن الحوزي أيضاً ، قال : " قال الزارع : قال لما عمر بن زكريا المودب : معنى (وكنم) من يحبه أنه يحبه " ^(٢٨) .

ومن صور غمز العلماء ما ذكره " متر " عن " أحمد بن كليب السحوي المتوفى عام ٢٦٦ هـ - ١٠٣٥ م أنه كان يحضر مجلس أحد النحاة في جماعة ، وكان معهم ولد لأحد القصاة يسمى أسلم وكان من أحسن من رأت العيون ، فاشتد كلفه بأسلم ، وصرف فيه القول ، إلى أن فست أشعاره فيه وحرث على الألسنة ، وتوشدت في الخافل " وذكر " متر " القصة بطولها ، وحلاصتها أن ابن كليب قد اشتد ولعه بالعلام الذي امتنع عن مجلس العلم ، فاحتال ابن كليب لرؤيته ، وانتهى الأمر به إلى المرض ثم الموت ، وقد أسف " أسلم " عليه كثيراً ، وكان يزور قبره ترحماً عليه ^(٢٩) .

لقد اكتفى متر بنقل ما يثين لشخصية أحمد بن كليب ، ولم يعلق على هذه الرواية ، ليؤكد أن هذه الأخلاق هي أخلاق العلماء في ذلك العصر ، وكان ينبغي لفت النظر إلى بعض السدور المستفادة من هذه الرواية ، مثل وجود مجالس للعلم ، وهي من أبرز عادات هذا العصر ، ومحال للشعراء . كما لم يبين متر أن هذا الحدث وقع في الأندلس .

وبهنا هنا إلقاء ضوء بسيط على شخصية أحمد بن كليب ، وشخصية أسلم فأما أحمد بن كليب ، فقد قال عنه ابن الأثير : " الأديب الشاعر الأندلسي ، وحديثه . أسلم بن أحمد بن سعيد مشهور " (٤٠) .

ولأحمد رواية مسندة إلى رسول الله ﷺ ذكرها صاحب بغية الطلب : " رواية أحمد بن كليب ، قال : حدثنا أبو بكر محمد بن محمد بن داود بن عيسى الكرخي قال : حدثنا إبراهيم بن أبي البلدي قال : حدثنا آدم قال : حدثنا شعبة عن الأعمش عن يحيى بن وثاب عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم " (٤١) .

أما أسلم ، فهو " أسلم بن أحمد بن سعيد بن أسلم بن عبد العزيز من أهل قرطبة ، يكنى أب الحسن ، أخذ النحو عن أبي عبد الله بن خطاب ، وسمع الحديث من أبي عبد الله بن مفرح وغيره " (٤٢) وقال صاحب النجوم الزاهرة : " كان أحمد هذا - يعني ابن كليب - يهوى أسلم بن حمد بن سعيد قاضي قضاة الأندلس ، وكان أسلم من أحسن أهل زمانه فافتن به ، وقال فيه الأشعار الرائقة " (٤٣) . وقصة أحمد بن كليب مع شهرتها - كما يقول ابن الأثير - يحيط بها الشك ، إذ لا يعقل يتعامل أديب مع قاضي القضاة بهذه الطريقة ، وليست هذه من سمات علماء الأندلس .

- ورجع " متر " من القرن الخامس الهجري حيث قصة ابن كليب إلى القرن الرابع الهجري فقال (ص ١٧١ - ١٧٣) : " وثم قصة أخرى حكها أبو بكر الصنوبري الشاعر الشامي المتوفى ع ٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م (٤٤) ، قال : كان بالرها (٤٥) وراق يقال له سعد ، وكان في دكانه مجلس ك أديب ، وكان حسن الأدب يعمل شعراً رقيقاً ، وما كنا نفارق دكانه أنا والمعرج الشامي (٤٦) الشامي وغيرنا من شعراء الشام وديار مصر ، وكان لتاجر بالرها نصراني من كبار تجارها ابن اسمه عيسى - أحسن الناس وجهاً ، وأحلام قداً ، وأظفرهم طبعاً ومنطقاً ، وكان يجلس إلينا ، ويكتب عنا أشعاراً وجميعاً نحه ، ويميل إليه ، وهو يومئذ صبي في الكتاب ، فعشقه سعد الوراق عشقاً مبرحاً ،

وعمل فيه الأشعار ..

ثم شاع بعشق الغلام في الرها خمره ، فلمد كبر وشارف الأشلاف ^(٤٧) أحب الرهبة ،
بحاطب أباه وأمه في ذلك ، وألح عليهما حتى أحاباه ، وخرجا به إلى دير زكي بنواحي الرقة ^(٤٨) ، وهو
في نهاية حسنه ، فابتاعا له قلابة ، ورفعوا إلى رأس الدير جملة من المال عنها ، فأقام الغلام فيها . وضافت
إلى سعد الوراق الدنيا بما رحبت ، وأغلق دكانه ، وهجر إخوانه ، ولزم الدير مع الغلام ، وسعد هذا
في حلال ذلك يعمل فيه الأشعار ..

ثم إن الرهبان أنكروا على الغلام كثرة إلمام سعد به ، ونهوه عنه وحرموه إن أدخله ، وتوعده
بإخراجه من الدير إن لم يفعل ، فأجابه إلى ما سألوا من ذلك . فلما رأى سعد امتناعه منه شق عليه ،
يخضع للرهبان ، ورفق بهم فلم يجيبوه ، وقالوا : في هذا علينا إثم وعار ، ونخاف السلطان ، فكان إذا
راق الدير أغلقوا الباب في وجهه ، ولم يدعوا الغلام يكلمه ، فاشتد وحده ، وزاد عشقه حتى ناز إلى
جنون ، فحرق ثيابه ، وانصرف إلى داره ، فضرب جميع ما فيها بالنار ، ولزم صحراء الدير ، وهو
عريان يهيم ، ويعمل الأشعار ويكي .

قال أبو بكر الصنوبري : ثم عبرت يوماً أنا والمعوج من بستان بتنا فيه ، فرأيناه جالساً في ظل
الدير ، وهو عريان ، وقد طال شعره ، وتغيرت خلقته ، فسلمنا عليه وعذلناه ، وعاتبناه ، فقال : دعاني
من هذا الوسواس ، أترى ذلك الطائر على هيكل ، وأوماً بيده إلى طائر هناك ، فقلنا : نعم ، فقال : أنا
وإحقكما يا أخوي أناشده منذ الغداة أن يسقط فأحملة رسالة إلى عيسى ، ثم التفست إلي وقال : يا
صنوبري .. معك أراح ؟ قلت : نعم . قال : اكتب :

بدينك يا جماعة دير زكي	وبالإنجيل عندك والصلب
قفي وتحلمي عني سلاماً	إلى قمر على غصن يطيب
حماد جماعة الرهبان عني	فقلبي ما يقر من الوجيب
وقالوا : رأينا إلمام سعد	ولا والله ما أنا بالمريب
وتولى سعدك المسكين يشكو	لهيب جوى أحر من اللهب
فصله بنظرة لك من بعيد	إذا ما كنت تمنع من قريب
وإن أنا مت فاكتب حول قبري	محب مات من هجر الحبيب
رقيب واحد تنغيص عيشي	فكيف بمن له مائتا رقيب

ثم تركنا وقام يعدو إلى باب الدير وهو مغلق دونه ، وانصرفنا ، ومازال كذلك زمانا ، ثم
وحد في بعض الأيام مينا إلى حانب الدير ، وكان أمير البلد يومئذ العباس بن كيغلغ ، فلما اتصل ذلك
به وبأهل الرها خرجوا إلى الدير ، وقالوا : ما قتله غير الرهبان ، وقال لهم ابن كيغلغ : لابد من ضرب
رقة الغلام وإحراقه بالنار ، فافتدى النصارى نفوسهم وديارهم بمائة ألف درهم . فكان الغلام بعد ذلك
إذا دخل الرها لزيارة أهله صاح به الصبيان : يا قاتل سعد الوراق ، وشدوا عليه بالحجارة يرمونه ،
وزاد عليه الأمر في ذلك حتى امتنع من دخول المدينة ، ثم انتقل إلى دير سمعان ، وما أدري ما كان منه .
هكذا نقل متر القصة عن أبي بكر الصنوبري من كتاب الإرشاد لباقوت^(٩) ، وقد
ذكرها نسخها لأما في القرن الرابع الهجري ، وهناك مجموعة من الملحوظات ينبغي الوقوف عندها ،
وهي :

- جاءت الخكاية للاستدلال على موضوع الولع بالغللمان ، علما بأن القصة تحوي أمورا أكثر
أهمية من هذا ، مثل : (محالس الشعراء الشاميين والمصريين) ، فهي عادة اجتماعية ذات أهمية ، ومع
ذلك أغفلها متر تماما ، أو ربما أغفل المترجم تعليق المؤلف عليها .

- ومثل : (معاملة أهل الذمة في الدولة الإسلامية) ، فالتاجر النصراني من كبار التجار في
الرها ، وولده يختلط بالشعراء ويجالسهم ، بل ويكتب عنهم ...
- ومن الغريب أن يقال عن هذا الصي النصراني أنه كان في الكتاب ، إلا أن يكون قد أسلم هو
وأبوه ، ولكن ظاهر القصة يؤكد عكس ذلك ، فقد انتقل الصي إلى دير زكي يريد الرهبة . وقد يكون
المقصود أن الصي في سن الغلمان الذين يختلفون إلى الكتاب ، وهذا غير منطقي .

- هذه قصة لرجل بعيد عن الإيمان الصحيح ، لأنه لا يدري أن من أحب قوما حشر معهم ،
وأن الولع الذي يقضي بصاحبه إلى الجلوس بجوار الدير النصراني لا يجوز شرعا .
- فضلا عن ذلك فهذه حكاية فردية ، لا ترقى للدرجة أن تكون عادة اجتماعية ، فهي قصة
وراق عديم الفقه والنظر .

- لقد كان عيسى الذي ولع به سعد نصرانيا ، أما سعد فقد حلف بالإنجيل وبالصليب ، وهو
فيما يزعم مسلم ، وأعتقد أن مسلما لا يفعل ذلك ، ولا تصل به الأمور إلى هذا المستوى المتدني .
- والقصة لها بعض المغالطات العجيبة ، مثل كون الصي النصراني كان في الكتاب ، وإن كنا
قد حاولنا توجيه كلامه هذا ، كما أن القصة لها كلمات غير واضحة مثل (شارف الأشلاف) .

- وأخيراً يظهر من اهتمام " متر " بقصص الولع بالعلماء وتركيزه عليها أن له أهدافاً غير
سنة ، تتعارض والأمانة العلمية ، وقد صور الحضارة الإسلامية تصويراً قبيحاً خلاف الواقع المشرق
ي كانت عليه .

ثم ينقل متر (ص ١٧٣) عن أحد المستشرقين وهو (ويستيفلد) قوله : " وكان بعض العلماء
يون التسان غير الملتحين من حضور دروسهم ، ولعل ذلك لخوفهم من مثل هذه القصص الغرامية ،
نان بعض شديدي الإقبال على التعلم من الصبيان يتخذون لحي مصطنعة ، ليتمكنوا من التسرب إلى
لس أولئك العلماء " .

ولا شك أن غمز العلماء في ذلك النص واضح ، ولم نسمع من فعل ذلك منهم بالتحديد ،
لام متر ليس فيه تحديد لعالم ما فعل ذلك الأمر ، وكلمة (بعض) تدل على عدم الدقة ، لأنها تكرة
عامة .

ولم يكتف متر بغمز الخلفاء والعلماء في قرون مختلفة بل غمز أيضاً الأمراء والقادة الكبار في
رلة ، ومن ذلك قوله عن اختيار البويهى (ص ١٦٧) : " على أنه يعكس عن الأمير اختيار البويهى أنه
له في إحدى المواقع غلام تركي ، فجن عليه حنوناً ، وحدث له من الحزن ما لم يسمع بمثله ، وزعم
فجميعته بهذا الغلام فوق فجميعته بالمملكة والانسلاخ منها ومن النعمة ، وما زال يظهر الشكوى حتى
- ميزانه عند الناس ، وسقط من عيونهم ، ولكن بختيار هذا كان سعى الحكم مذموماً " (٥٠) .

هذا ما نقله عن بختيار ، والباحث يتشكك في هذا الكلام لما عرف عن عز الدولة بختيار من أنه
" من أحسن الناس وأشدهم قوة كان يصرع الثور الجلد بيديه من غير حبال ولا أعوان ، يقبض على
مه ويطرحه إلى الأرض حتى يذبح وكان يقبض على رقبتى غلامين بيده وهو قائم وهما قائمان
نعهما من الأرض ، وهما يصيحان ويضطربان ولا يمكنهما الخلاص وكان من قوة القلب على أمر
م ... " (٥١) .

وواضح أن متر أخذ أسوأ ما عند بختيار ، تاركاً السمات الأخرى التي تكمل صورة الشخصية
إنه لمن الغريب أن يكون رجل يمثل هذه القوة والشجاعة مغلوباً على أمره من غلام ، بفقدته يتغير
، ويرى أنه أهم من الملك الذي في يديه !! ، فإذا ما وضعنا في الاعتبار ما فعله بختيار مع الروم ،
صاراته عليهم ، وعرفنا أن الروم نصارى ، وأن متر نصراني ، أدركنا سراً من أسرار تعامل متر على
الرجل ، وتصيد أخطائه !! . فضلاً عن التشكك في هذه الرواية عن بختيار ، إذ ربما كانت من
سائس عليه ؛ للتقليل من شأنه .

وليس اختيار وحده هو الذي غمزه متر ، بل هناك شخصية لها أثر في العلاقات البيرونية الإسلامية مثل اختيار مماماً ، وهي شخصية سيف الدولة الحمداني ، فقد قال متر (ص ١٦٨) : " بل يحكم أن سيف الدولة صاحب حلب المشهور بحروبه وغزواته كان له غلام يسمى باسم مونث وهو ثم وكان عزيزاً عليه " ، ثم يستطرد " متر " قائلاً (ص ١٦٨) : " وكان من ذوق ذلك العصر يكون الغلام الذي يُستَهتر به أغنى الصوت ، غنجاً ، ألثغ السين " (٥٢) .

ونبدأ بالسؤال الذي يطرح نفسه هنا : هل يكون مثل عزيزاً على سيف الدولة ، وفي الوقت ذاته يكون ممن يستهتر بهم ؟! . إن الواضح من هذين النقلين أن متر يحاول إلصاق تهمة ولو قليلة بالشخصية الفذة التي غزت الروم أربعين غزوة ، ودوختهم ؛ لذا لم يستطع متر أن يقول إن سيف الدولة كان مولعاً بالغلما ، وإلا كان مخالفاً للحقيقة بشكل صارخ ؛ لذلك اختار ألفاظاً لا تضعه في موقف الاتهام ، فقال : " له غلام يسمى باسم مونث " ، و ماذا في هذا؟ إن الأسماء لا تعلل ، ثم نقول : هو سيف الدولة هو الذي أسماه بذلك الاسم ؟! الجواب لا يملكه متر ، ولم يجد متر سوى أن يقول عد سيف الدولة والغلام : " وكان عزيزاً عليه " ، ولا ندري ما الغضاظة في ذلك !!!! .

والأعجب أننا نجد متر ينتهز فرصة تسمية الغلام باسم مونث ثم يصدر حكماً عاماً عن ذلك العصر كله في الغلمان والأعجب منه تدخل المترجم وتعليقه على كلام متر (هامش ٢ ص ١٦٨) بنق بيتين من الشعر نقلاً عن الإرشاد لياقوت (٥٣) يقول فيهما :

" وشادن قلت له ما اسمكا فقال لي بالغنج عبثا

فصرت من لثغته ألثغاً فقلت أين الكاث والطاث "

ولا أدري لماذا ساق " أبو ريذة " هذين البيتين ؟ أمكن أن يكون قد تأثر بـ " متر " فأجمع هو الآخر كل ما له صلة بالموضوع مما نسيه أو غفل عنه متر ؟! أم هو نوع من الاستلهذين البيتين ؟! أم أن " متر " هو الذي وضعهما في الهامش ، وأن المترجم استطاع ترجمتهما حراً فأضاف اسمه بعدهما ليبين قدرته اللغوية الفائقة ؟!

قل أن يتكلم متر عن موقف الفقهاء من الغلمان تحدث عن قضية مهمة هي (الروح العربية)
يقال (ص ١٦٥) : " ولم يكن هذا الولوع بالغلمان شأن طوال العصور التي كانت السيادة فيها للروح
لعربية ، ولم يكن ثم ما يدعو الفقهاء الأولون إلى الكلام في ذلك " .

فما المقصود بالسيادة للروح العربية ؟ هل قصد به سيطرة الجنس العربي ؟ إن كان كذلك ،
فهو مخالف للواقع ، فالقرن الثالث الهجري شهد عصر نفوذ الأتراك ، ثم جاء عصر النفوذ البويهي نحو
منتصف القرن الرابع الهجري !! أم هل قصد بسيادة الروح العربية سيادة الروح الإسلامية ، لكن قلناه لم
طأعه ؟!

ومع ذلك يمكن تسجيل الملاحظات التالية :

- اهتم المسلمون بالغلمان وولعوا بهم حتى صار ذلك ظاهرة عامة، وهو يخالف الواقع التاريخي .
- كان لسيادة الروح العربية أثر في عدم الولوع بالغلمان ؛ مما يؤكد أنها عـدة مستوردة ،
ليس للعرب اهتمام بها سابقا ، وهذه مندوحة للعرب ، وليست ذما لهم .
- إن عدم كلام الفقهاء عن الولوع بالغلمان كان بسبب سيادة الروح العربية ، وأنه لما
بهرت الروح غير العربية ، أو بالأحرى غير الإسلامية وفشا أمر الولوع بالغلمان دعت الحاجة لكلام
فقهاء في ذلك الموضوع .

ثم يقول متر عن فقهاء القرن الرابع : " أما في القرن الرابع فقد اختلف الفقهاء في اللواط
غللمان اختلافا بينا فأراد البعض أن يعتبروه كالزنا ، وأن يجعلوا عقابه القتل والرحم ، وأراد آخرون أن
يقوا بين اللواط بالمملوك، وغير المملوك، وقالوا : إن الحد لا يلزم الأول بخلاف الثاني ، والأكثر
ي أنه لا حد فيه، وهو يوجب التعزير من القاضي " .

ويلاحظ أن متر قد اعتمد في حكمه السابق على مصدرين غير فقهيين ، وهما الخراج
دائمة بن جعفر وطبقات السبكي ، وهما تاريخيان ، فضلا عن أن متر لم ينتبه إلى أن اختلاف الفقهاء
يكن في العقوبة ، فقد اتفق الجميع على وجوب العقوبة ، وإنما اختلفوا في توصيفها أهـي حد أم
ير ؟!

والسبب في هذا الاختلاف ناشئ من مدى قبول هذا الإمام أو ذاك للروايات الواردة في هذا
شأن ، وثبت صحة نسبتها إلى الرسول ﷺ أو إلى أعمال الصحابة رضوان الله عليهم .

أما أن يقال : إن الاختلاف في حد اللواط نشأ بسبب الولوع بالغلمان ، وتقلص الروح العر ، فهو كلام غير مقبول بهذه الطريقة ، وإنما ينبغي القول : إن عقوبة اللواط ثابتة ، لكس كثرة كـ الفقهاء في الموضوع واختلافهم في مقدارها وتوصيفها يرجع إلى أنما فشت بسبب ابتعاد بعض الناس عـ أمور هذا الدين ، فإن القرآن الكريم حذر من هذا الفعل الشنيع ، وعدّه ارتكاساً للفسقة ، علماً بـ الاختلاف في تطبيق العقوبة ووصفها سبق القرن الرابع الهجري ، حيث كان لأبي حنيفة وتلاميذه وهم في القرن الثاني الهجري - آراء متباينة ^(٥٤) ، كما كان للثوري وأحمد - وهم في القرن الثا الهجري آراء في هذا الأمر ^(٥٥) ، وكذلك ورد الاختلاف في القرون المتأخرة عند ابن كثير ^(٥٦) ، وكذلك عند ابن تيمية ^(٥٧) وغيرهما ^(٥٨) .

وهذا الاختلاف - الفرعي - يعد من مفاخر الفقه الإسلامي لعدة أسباب ، لعل من أهمها :
أولاً : لأنه اختلاف في الفروع وليس في الأصول ، فالعقوبة واجبة ولم ينكرها أحد من الفقـ قديماً وحديثاً .

ثانياً : لأنه دليل على تحري العدل في العقوبة باستنباط الحكم العادل من الأدلة الشرعية المعتـ
ثالثاً : لأنه يؤكد تباين العلماء في تحصيل المعرفة ، وتباين قدراتهم في الاستنباط .

رابعاً : لأنه يؤكد مدى حرص علماء الأمة الإسلامية على طهارة المجتمع الإسلامي ونظافته ونقائه .

أصل عادة اللواط بالغلمان دخيل :

يعتقد متر أن أصل عادة اللواط بالغلمان دخيل على المسلمين ، وهو بهذا منصف ، غير أن يسترعي الانتباه أنه لما عرض الموضوع الذي يشير إلى إنصافه نسبة لأخبار المسلمين الماثورة ، كأنه ير أن يجعلها في حكم الأخبار المدعاة ، فيقول (ص ١٦٦) : "وفي الأخبار الماثورة عند المسلمين أن اللواط أتى من الشرق مع جيوش العباسيين الذين جاءوا من خراسان لأن بلاد الأفغان كانت مشـ بذلك في القرن الثالث والرابع للهجرة ، ثم شاع واستقر في القرن الرابع ."

وتبني الإشارة هنا إلى أن بلاد الأفغان فتحت منذ القرن الهجري الأول
يرد في كتب السابقين أو اللاحقين عن الأفغان ارتكاب مثل هذه الفاحشة فكـ
ظهرت فجأة في القرنين الثالث والرابع الهجريين ؟

لقد استقى متر هذه المعلومات من ديوان أبي نواس ، والمضاف والمنسوب للثعالبي ، ثم استطرده الموضوع معلقاً بهذا التعليق (ص ١٦٦) : " حكى الجاحظ (المتوفى ٢٥٥ هـ - ٨٦٨ م) في كتاب علمين سب حدوث هذه الفاحشة في الخراسانيين ، وهو خروج الأحناد في العتوت مع الغلمان ، ذلك حين سن أبو مسلم ألا يخرج النساء مع الجند خلافاً لبني أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع العسكر . فلما طال مكث الغلام مع صاحبه في الليل والنهار وعند اللباس والتستر - وهم جنود بحول تقع أبصارهم على خد كخد المرأة وردف كرددتها وساق كساقها - تولدت الفاحشة " (نقلاً عن حمزة الأصفهاني في ديوان أبي نواس) .

لقد رأينا مدى إلحاح متر على تشويه صورة القرن الرابع ، خلفاؤه ، وقادته ، وعلمائه ، سل وعامته وأخذ ما استدل به على آرائه من مصادر غير مباشرة ، أو من مصادر عرف أصحابها بالخبون . ونسدل الستار على هذه الصفحة من كلام متر الذي خالف فيه روح الجهاد العلمي ، وصور مجتمعا إسلامي في عصر من أبهى عصوره بمجتمع الخساء فيه عادة أصيلة ، والولع بالغلمان من عاداته التي وصمت به ولم يتفك عنها ، حتى ملأ الحديث عنها بيوت الخلفاء والقادة والعامّة والفقهاء !!! وهذا تجنٍ واضح . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

عاشرا : غمز الشريعة الإسلامية ووصفها بالقسوة :

قال متر : " أما البغاء ، فليس هو بالشيء الذي يستعيب به العزاب عن الزواج - كما يرى المفكرون العقليون من علماء الاجتماع اليوم ^(٥٩) - بل هو من حيث أصله : نظام في الديانات القديمة غريب في بابه ، شأنه شأن نظام الخصيان . وقد انتشر البغاء في الإسلام - على الرغم من إباحة الزواج بأكثر من واحدة ، وأن العرف كان ينكر البغاء ونحيب كان الرجل الأعزب أو الفتاة بدون زوج بعد هذا كله يدوا أمراً شاذاً جداً وأيضاً على الرغم من أن الشريعة جعلت حد الزاني المتزوج قاسياً فقصت أن يرحم حتى يموت . على أن الشارع شدد في إثبات تهمة الزنا إلى حد لا يمكن معه الحكم بهذه العقوبة " .

وملاحظاتي على هذه الفقرة من كلام متر هي :

* إن الأخلاق الإسلامية لا تؤخذ عن المفكرين الاجتماعيين ، فللإسلام مصادره الثابتة ، وتوجيهاته الواضحة التي لا يغيرها الزمان أو المكان ، أو جهل الجهلاء بها ؛ لأنها صادرة من لدن حكيم حبير (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ؟ (سورة الملك : آية ١٤) .

* إذا كان البغاء في نظر متر يعد نظاماً ، فالإسلام لا يعده كذلك ، وإذا كان هذا النظام له أصل في المعتقدات القديمة مثله مثل الخصاء ، فالإسلام يحرمهما ، والشرعية الإسلامية وضعت حداً لذلك . ولا يلزمنا "متر" بضرورة وجود نظام للبغاء في الإسلام ، بحجة أن له أصلاً في الديانات القديمة ، ثم : ما هي هذه الديانات القديمة التي جعلت البغاء نظاماً؟ أم ديانات سماوية؟ أم ديانات أرضية؟ أم هو مجرد حكم لا أساس له ، يريد به متر أن يضفي على الموضوع هذا صفة القداسة أيضاً ؟!! .

* إن متر لم يذكر صفة الشريعة حين قال (ص ١٧٣) : " على الرغم من أن الشريعة جعلت حد الزاني المتزوج قاسياً " ، فلم يقل الشريعة الإسلامية ، هل هذا لحاجة في نفسه ؟! بل ليتك اكتفى بذلك ، وإنما وصف حد الزنا للمحصن بالقسوة ، وهو كلام يحترق على الإسلام ، وهو اتهام في غير موضعه ، والدليل من كلامه هو حين قال (ص ١٧٣) : " على أن الشارع شدد - مع تحفظنا لهذا اللفظ - في إثبات ثمة الزنا إلى حد لا يمكن معه الحكم بهذه العقوبة " . فالإسلام يعذر من العقوبة ويضع الحد المناسب لكل جريمة تقع ، حفاظاً على طهارة المجتمع ونقائه ، وحرصاً على النفس الشريفة من ارتكاب ما هو شنيع أو مخالف للفطرة المستقيمة ، لكن الذين اعتادوا على تبلد المشاعر ، وتفكك الروابط ، والوقوف في الآثام يرون المحافظة على نقاء المجتمع ، ووحدته وترايبه ، يرون ذلك تشدداً وقسوة !! فماذا عسانا نقول لهم ؟ !!! .

* وإذا وقفنا مع وصف متر للشريعة بالقسوة في حد الرحم نقول : كان ينبغي أن يستبطن متر بنفسه نتيجة لذلك وهي أن القيود التي وضعت لإثبات التهمة قيود تتناسب وطبيعة الجريمة والعقوبة كذلك .

* وحدير بالذكر أن المترجم لم يسه على ما أطلقه متر من حكم على الشريعة الإسلامية ، وهو أمر مستغرب من مترجم مسلم ، نحسبه على علم يمثل هذه الغمزا التي تسيء إلى الإسلام . وينبغي أن نذكر هنا ما علق به المترجم على قول متر "نظام ديني غريب" ، فقال في الهامش (ص ١٧٣ هامش ٣) : " لا أدري ماذا يقصد المؤلف ، ولعله يشير إلى نظم دينية قديمة فاسدة " .

واستطرد متر بعد ذلك قائلاً (ص ١٧٣ ، ١٧٤) : " وقد وصف أحد الرحالة المسلمين حوالي عام ٣٠٠هـ - ٩١٠م حال البغاء في الصين ، وتكلم عن الزواني ، وهن يتبعن في ديوان خاص هن يسمى ديوان الزواني ، وعليهن في كل سنة ضريبة يؤدينها لبيت المال ، ثم قال : ونحن نحمد الله على ما طهرنا من هذه الفس " .

هذا ما نقل عن الصين وهو مجتمع غير إسلامي ، ثم يليه تعليق يؤكد طهارة المجتمع الإسلامي من هذه الفعن ، وهو في ظاهره كلام منصف ، لكن لماذا هذه المقابلة بين مجتمع المسلمين ومجتمع الصين بالذات؟ ينضح ذلك من استكمال متر لكلامه ، حيث قال (ص ١٧٤) : " ولكن لم تمض على ذلك خمسون سنة حتى بلغ من إهمال عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢هـ - ٩٨٢م للشرعية أنه فرض على الرافضات والقحاط بغارس ضريبة ، وكان يضمن هذه الضريبة . (يقول البيروني بعد حكاية ما كان عليه ملوك الهند من فرض الضريبة على المغنيات والرافضات طلباً للمال : وهكذا كان عضد الدولة) وأضاف إليه حماية الرعية من عذاب الجند " (١١) .

وفي جملة اعتراضية انتقل متر من عضد الدولة العباسي إلى الفاطميين ، فقال (ص ١٧٣) : " وقد أحد الفاطميون بهذا النظام ففرضوا الرسوم على بيوت الفواحش " (١٢) ثم عاد ليقول (ص ١٧٤) ليقول : " وفي حكاية اخترعت حوالي آخر القرن الرابع الهجري أن عضد الدولة خطب الأميرة جميلة الحمدانية ، فامتعت عليه ، فلما أسرها استولى على جميع أموالها ، وقيل : إنه فرض عليها مالا ، وألزمها إما أن تؤديه أو تختلف إلى دار القحاط لتكتسب ما تؤديه ، حتى إذا ضاق بها الأمر انتجرت غفلة الموكلين بها ، وغرقت نفسها في دجلة " .

إن ما قال متر عن عضد الدولة من الأمور المستغربة ، فقد جاء في كتاب سياست نامه عن عضد الدولة أنه " لم يكن من بين ملوك الديلم من هو أعظم وأكثر يقظة وأبعد نظراً من عضد الدولة إذ كان سياسياً عالي الأهمية محملاً للإصلاح والعمران " (١٣) .

فأين هذا من رحل يفرض على الرافضات والقحاط بغارس ضريبة ؟ بل أين كلام متر من عضد الدولة الذي كان صاحب الانتصارات العظيمة ، والإصلاحات الداخلية الرائعة ، والاهتمام بالعلم وأهله ؟ ولماذا لم يذكر " متر " اسم عضد الدولة ، وهو " ألب أرسلان " ؟ والجواب مبسور ؛ وهو أن اسم ألب أرسلان مشهور ومرتبطة بمعركة فلا ذكر وهو ما لا يريد " متر " التنويه عليه ؛ لأنه سينسف فكرته نفساً .

إن متر حاول نفي التهمة عن عضد الدولة بقوله " وفي حكاية مخترعة " ، لكن الأمر الملفت للانتباه أن هذه القصة تشير - إن صحت - إلى عفة المرأة المسلمة وطهارتها ، للدرجة أنها لم تعرض أن تدس شرفها وإن أدى لها إلى أن تقتل نفسها خوف العار ، وغريب أن يفكر عضد الدولة في حطة حمية الحمدانية ، فلما نصح سية عنده بطلبها بالبغاء ؟ فهذه لا تعقل عن شخصية كهذه .

ولا يمتأ متر يتتبع العورات ، فمن ذلك قوله (ص ١٧٤ ، ١٧٥) : " ومما احتضنت مدينة اللاذقية ^(٦٤) أن المحتسب فيها كان يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم في حلقة ويبادي على كل واحدة منهم ، ويتزايد الفسقة فيهن لليلة ، ثم يوحدن إلى الفنادق التي يسكنها الغرباء ، بعد أن تلحد كل واحدة منهن خائماً يسمى حاتم المطران ؛ ليكون حجة بيدها من تعقب الوالي لها ، وإن وجد حاطن مع حاطنة من غير حاتم المطران عوقب ، على أن هذا النظام لم يذكر بعد أن عادت مدينة اللاذقية إلى حكم الروم " ^(٦٥) .

ولا تعليق بعد تعليق متر نفسه : " على أن هذا النظام لم يذكر إلا بعد أن عادت مدينة اللاذقية إلى حكم الروم " ، ولكن لماذا أفحم هذا الموضوع هنا ما دامت صلته بالمجتمع الإسلامي مقطوعة ؟ ربما يقصد متر التأكيد على صفاء المجتمع الإسلامي ونقائه ، وبضدها تتميز الأشياء !!

وهذا النص السابق جاء في معجم البلدان بهذا اللفظ : " قال ابن فضلان واللاذقية مدينة قديمة سميت باسم نانيها ورأيت بها في سنة ٤٤٦ هـ أعجوبة وذلك أن المحتسب يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم في حلقة ويبادي على كل واحد منهم ويزيدون عليها إلى دراهم يتهبون إليها ليلتها عليه ويأخذونهم إلى الفنادق التي يسكنها الغرباء بعد أن يأخذ كل واحد منهم من المحتسب حاتم المطران حجة معه ويعقب الوالي له فإنه متى وحد إنساناً مع حاطنة وليس معه حاتم المطران ألزم حيانة " ^(٦٦)

وواضح من النص الذي نقله متر أن ابن فضلان هو الذي ذكر أنه رأى في مدينة اللاذقية هذا الفعل وعدة من العجائب ، ويلاحظ أن مدينة اللاذقية "كان أغلب سكانها من نصارى الروم ، وكانت إحدى ثغور إنطاكية التي كان الروم يسيطرون عليها حتى القرن الخامس الهجري .

ثم انتقل متر إلى إصدار الأحكام الخرافية ، فقال (ص ١٧٥) : " وفي عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م قام الخنابلة ، وهم المسلمون المتطرفون ، لمطاردة المنكر في بغداد ، وعظم أمرهم وقويت شوكتهم حتى صاروا يكسبون دور القواد والعامة ، فإن وجدوا سيئاً أراقوه ، وإن وجدوا معيبة ضربوها وكسروا آلة العناء ، وصاروا يعترضون في البيع والشراء ، وفي مشي الرجال مع النساء والعسيان ، فإذا رأوا ذلك سألوا الرجل عن الذي معه من هو فأحرقهم ، وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة ، حتى أرحموا بغداد " ^(٦٧) .

هذه حادثة نقلها ابن الأثير ، وعلى الرغم من اتمام الحائلة بالنظر ، وهو مصطلح لا كنه المستشرقون وأهل السياسة ممن يجارون أهل الإسلام ، فإن هذه الأمور حدثت في دار الخلافة في بغداد ، ولم تتعداها إلى ما سواها ، هذا على افتراض صحة ذلك الخبر " . وإذا نظرنا إلى نص الخبر كما أورده ابن الأثير سحده بدأ بقوله : " : ذكر فتنة الحائلة ببغداد ، وفيها عظم أمر الحائلة ، وفويت شوكتهم ، وصاروا يكسرون من دور القواد والعامة وإن وحدوا نبيذاً أراقوه وإن وحدوا مغية ضربوها ركسروا آلة الغناء ... " .

وحدير بالملاحظة أن النص الذي أورده ابن الأثير جاء في آخره إرسال رسالة شديدة اللهجة من الخليفة إلى هؤلاء الحائلة ، ينكر عليهم فيها فعلهم . ولم يذكر متر شيئاً من ذلك مكتتباً بعرض الجانب السلي ، وتاركاً موقف الخليفة منه ؛ لأنه موقف محمود من إمام المسلمين وحليفهم . وواضح أن ابن الأثير لم يذكر جملة " المسلمون المتطرفون " فهي من قول متر الذي ترجمه أبو ريذة ، وأما قول متر " لمطاردة المنكر " فهي مندوحة للحائلة وليست مذمة ، ولا يرسم الذي يطارد المنكر بالنظر إلا عند شذاذ العقول ، غمى القلوب ، ضعاف الفهم ، جهال بحقيقة الدين ، مرضى النفوس .

ويعلل متر قوله مستنداً برأي الماوردي ، فقال (ص ١٧٥) : " على أن الماوردي يقول : إن المحتجب إذا رأى وقفة رجل مع امرأة في طريق سابل لم تظهر منهما أمارات الرب لم يعترض عليهما بزجر ولا إنكار ، فما يجد الناس بدأ من هذا ، وإن كانت الوقفة في طريق حال فحلوا المكان رية ، فينكرها ولا يجعل بالتأديب عليها حذراً من أن تكون ذات محرم ، وليقل : إن كانت ذات محرم فصيا عن مواقف الرب ، وإن كانت أحنية فحف الله تعالى من خلوة تؤديك إلى معصية الله تعالى " (١٦٨) .

إن الماوردي يشير من خلال كلامه إلى قضية مهمة جداً ، وهي مسألة سد الذرائع والعد عن الشبهات ، وهذه المسألة في الفقه الإسلامي قد لا يعرقها متر ، أو ربما لا يدرك معناها ، باعتبارها من مبادئ الإسلام الأصيلة التي دعا إليها القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

وقال متر (ص ١٧٦) : " على أن العادة المستحسنة في نظر الشرع هي أن يُقَرَّ النساء في بيوتهن ، ولا تعتمد من كثرة الخروج " .

وهذا الكلام غير دقيق ، لأن الإسلام يحترم المرأة ويضعها في مكانها اللائق لها والمناسب لعطرها ، فإن القرار في المنزل يحافظ على عفتها وطهارتها والخروج يكون لضرورة ، وإن كثر . لأن

العبرة هي تكريم المرأة وليس احتكار تصرفاتها ، وفضلاً عن ذلك فإن أمر الله تعالى لا يقبل الاعتراض ، وهذا من صميم عقيدة الإسلام ، فإن قال الله تعالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن الجاهلية الأولى ﴾ وحب على المسلمة تنفيذ الأمر طاعة لله تعالى ، فهو ليس (عادة مستحسنة) بل يعد واحداً شرعياً أمر به رب العالمين سبحانه ، ومع ذلك فإن كتب السنة تفضل القول في موضوع خروج النساء ، وتاريخنا الإسلامي حافل بنماذج من المسلمات كن يشاركن في ساحة القتال .

ثم يحاول متر مجميع مفاهيم الإسلام ، فيقول (ص ١٧٦) : " وبعد أن كانت عادة استقرار النساء في البيوت أدباً شرعياً صارت عادة بين الأشراف والكبراء حتى في أسبانيا " .

النساء في البيوت أدباً شرعياً صارت عادة بين الأشراف والكبراء حتى في أسبانيا . فهو يرى أن استقرار النساء في البيوت تحول من أدب شرعي إلى عادة خاصة بالأشراف والكبراء فقط ، وهذا يعني أن بقية أفراد المجتمع قد خرجوا إلى الشوارع ، واختلط الخابل بالنابل ، وهذا ما لا يقره عقل ، كما أن متر لم يذهب إلى الشوارع في العالم الإسلامي آنذاك ويرى مخالفة العامة لعادة استقرار النساء في البيوت .

ثم ينقل متر عن مستشرق مثله ، وهو "استدبال" قوله : "وبتأثير الأسبان كانت لا ترى امرأة قط في شوارع إيطاليا حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي" (٦٩)

وهذا أمر يحمد للمسلمين ، حيث بلغ أثرهم إلى إيطاليا في منتصف القرن السابع عشر الميلادي ، وهذا الكلام يؤكد تناقض حكم متر ، وعدم قدرته على إعطاء تصور صحيح لمجتمع المسلمين في القرن الرابع الفجري أو غيره .

ثم تكلم متر عن بعض النساء العالمات اللاتي يقبل الناس على دروسهن مثل : أم الواحد ، وأم الفتح ، و أوحز الكلام عنهم ، وقد أخطأ فسمى الأولى " أم الواحد " والحقيقة هي " أمة الواحد " والفرق بين الاثنين كبير ، ولعله خطأ في الترجمة ، إذا أحسنا الظن في نية " متر " ، لأن السم الأول يعني جعل لفظ الخلافة متنسلاً لأم وهي عقيدة عند منحرفي النصرانية . وكان ينبغي على متر ، أن يذكر الجانب المشرق للمرأة في الشرق ، مثلما تكلم عن سوء أخلاق بعض نساء الشرق ، فقد نسي أو تناسى إحدى المحدثات الشرقيات (٧٠) وهي جمعة بنت أحمد بن محمد بن عبيد الله المحمية ، من أهل نيسابور ، قدمت بغداد ، وحدثت لما عن أبي عمرو بن حمدان ، وأبي أحمد الحافظ ، وغيرهما . قال الخطيب البغدادي : " حدثني عنها أبو محمد الخلال ، وعبد العزيز بن علي الأزحي ، وأبو الحسن محمد بن محمد الشروطي " (٧١)

حادى عشر : إلقاء الأحكام الجزائية :

لقد نظر " متر " إلى المجتمع الإسلامى الذى كرم المرأة ، وصان عرضها من أن يدنسه الأحياء على أنه انفصال بين النساء والرجال ، ولهذا الانفصال عواقب اجتماعية وخيمة ، فقد كان سبباً في ظهور " فحش القول " - كما يرى متر ، ثم أخذ يروهم القارئ بأنه لو قارن بين قصص العرب في عصرهم الأول (يقصد الجاهلي) ، وما كان في هذا العصر من نواذر وكلام وشعر ، بما في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، لكانت الدهشة كبيرة ، حيث ستكون النتيجة أن هذين القرنين ظهر فيهما الميل الشديد إلى (الإفحاش في القول) .

وهذا الكلام غير صحيح التة ، فشعر امرئ القيس ، وطرفة بن العبد ، ولبيد ، وغيرهم يحمل من معاني الفحش الشيء الكثير ، لكن " متر " الذى لا يعرف العربية يريد وصم القرن الرابع كله بفحش القول ، مخرد أن شاعراً أو اثنين أو أكثر كان في شعرهما " فحش " ، ونسى أو تناسى أحساق علماء المسلمين في هذا القرن .

ثم أراد أن يعتذر لوحود هذه العادة في ذلك القرن ، فقال (ص ١٨١ ، ١٨٢) : " وليس هذا أيضاً شأنه شأن غيره - إلا من أثر سيطرة العادات الشرقية غير العربية التي كانت قبل الإسلام ، سيطرة عادت لها من حديد ، ولا يزال البدوي إلى اليوم أعف وأطهر من غيره " .

وعلى الرغم من أن الكلام يحمل اعتذاراً واضحاً لسبب وجود ظاهرة " فحش القول " في ذلك القرن إلا أنه يحمل في طياته مدى تأثير الشرق والعادات الشرقية على العرب قبل الإسلام وبعده ، وهو ما لا يتفق والواقع ، فالعربي قبل الإسلام لم يتأثر بتلك الدرجة التي يصفها " متر " كما أن المسلمين في القرن الرابع المحجري وقبله لم تصل درجة تأثرهم إلى حد استقطاب عادات سيئة كثيرة من غيرهم من الأمم .

لقد بدأ متر بتعميم الحكم على القرن الرابع المحجري كله ، بل وصله بالقرن الذي قبله واصماً هذين القرنين بالفحش في القول عند الرجال ، ثم وجد نفسه قد وقع في تناقض كبير ، فاعتذر بسيطرة العادات الشرقية ، ولم تسعفه هذه الكلمة " العادات الشرقية " ، فاضطر إلى الاعتراف بأنه " لا يزال البدوي إلى اليوم أعف وأطهر من غيره " (ص ١٨٢) ، فمن غيره الذي يقصد؟! لا شك أنه يقصد المجتمع الذي يعيش فيه متر .

ولما أعيت متر الحيلة ، ووجد أن حجم التنازلات عن حكمه العام الجائر على القرن الرابع
أحري قد تزايد ، اضطر إلى حصر نفسه في موضوع محدد وهو الشعر ، ثم وجد أنه لو وصم الشعر
كله بفحش القول يكون قد وقع في تناقض شديد آخر ، فاضطر إلى تحديد نوع واحد فقط من الشعر
هو " شعر الهجاء " فقال (ص ١٨٢) : " وقد سيطرت على شعر الهجاء نوع خاص من الألفاظ
لذينة المستمدة من المحون المتصل بالمسائل الجنسية " . وساق متر مجموعة من الأحداث الفردية ،
والبداءات اللفظية لبعض الشعراء في شعرهم الهجائي ، وتساءل : هل يعتقد متر أن الهجاء لا ينبغي أن
يكون لادعاً ؟ ، أو ربما نزل إلى الحضيض والإسفاف في القول ؟ ، ألا يكفي أنه هجاء ؟ . وغني عن
التعريف أن الإسلام يحذر من السحرية والهجاء والسب ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ
مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ
وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (الحجرات : ١١)
ولست أبرئ شعر الهجاء من فحش القول ، ولكي أبرئ القرن الرابع أحري من تلك التهمة
وإذا كان الطبع السليم يأبى فحش القول ، فإن متر يعترف بنفسه أن القرن الرابع أحري كان
يضيق بهذا الخلق ، فالحكاية التي ساقها عن الوزير سليمان بن الحسن سنة ٣١٩ هـ من أنه كان يظهر
من سحف الكلام ويضرب الأمثلة المضحكة ، و يظهر القول القبيح بين يدي الخليفة ، " فاستنقصة الخلق
، وهجاه الشعراء ، واستعظموا الوزارة لمثله " (ص ١٨٢) . إنه اعتراف صريح بأن (الخلق) في القرن
الرابع أحري قد استنقصوا هذا الفعل من وزير ، واستعظموه . وهذا يدل على حسن الطبع عند العامة ،
وأهم يميزون بين الحسن والقبيح ، ويلفظون (فحش القول) ، ولو كان على لسان وزير .
وفي كلامه عن حب المال أكد متر أن هذه العادة قد ظهرت من حديد ، وأصبح للمال قوة
هائلة تفوق كل القوى ، وتعلو كل قيمة ، " وكل شيء صار يعرض من أجل المال ، وبلغت وصمة
حب المال والمكر لتحصيله أعلى طبقات رجال الدولة " (ص ١٨٤) .
أما حب المال ، فيبدو أن " متر " لا يعرف أنها غريزة بشرية و أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر
في كتابه العزيز قوله (وتحبون المال جاً جاً) (سورة الفجر) ، أما الاحتياج للوصول إلى المال فقد
سمى به الإسلام قال تعالى : (وآتوا البتامة أموالهم ولا تتبدلوا الحبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى
أموالكم إنه كان حوباً كبراً) (سورة النساء آية ٢) وقال : (إن الذين يأكلون أموال البتامة ظلماً إنما
يأكلون في بطونهم ناراً وسيهلون سعيراً) (سورة النساء آية ١٠) .

وحكى متر تلاعب الخليفة العباسي القاهر من أجل الحصول على المال حيث أمر " بتحريم
الحمر والغناء وسائر الأنبذة ، وأمر ببيع الخواري المغنيات ، على أنهن سر - ج لا يعرفن الغناء ، ثم وضع
من يشتري له كل حاذقة في صعدة الغناء ، فاشترى مهن ما أراد بأرخص الأثمان ، وكان القاهر
مولعا بالغناء والسماع ، فجعل ذلك طريقا إلى تحصيل غرضه رخيصا " . (ص ١٨٤) . ثم حكى
متر حكاية أخرى عن طمع الأخشيد ، واستيلائه على الأموال وإذا كان " ميتز " لا يحب المال ، فإن
في طبعه حلل ، لكنه تحذر الإشارة هنا إلى أن المسلم يتصف بالاتزان في تصرفه في المال ، فهو أولا
يأخذه من حلال ، ويصرفه في الحلال بلا تبذير ولا تقتير ؛ لأنه يعلم أن الإسلام لا يقر التبذير ، قال
تعالى : (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) ، ويعلم كذلك أن الشح ممقوت ، قال تعالى (ولا تجعل
يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) .

وتكلم متر عن قلة شعور الإنسان العربي بكرامته مما يسهل عليه اضطهاد الآخرين له ،
واستدل على ذلك بموقف أحمد بن طولون من ابنه العباس ، الذي كان قد خرج منه .

والقصة - أولا - في القرن الثالث الهجري ، فضلا عن أنها لا تشير إلى ضعف الكرامة العربية
، وإنما تشير إلى تأديب أحمد بن طولون لابنه ، والزامه بقتل من كانوا ينصرونه بنفسه ؛ ليدرك أنه ما
كان ينبغي عليه أن يخرج على أبيه ، ويسعى لشق عصا الطاعة .

والقصة الثانية التي أشار إليها متر كانت عن المحسن بن الفرات ، وإذلاله للوزير السابق لأبيه
وهو (حامد بن العباس) حيث كان يلبسه جلد قرد ، ويرقصه ، ويصفعه ، إلخ .

ولست أبرر هذا الفعل ولكنني أقول : هذه حادثة فردية تدل على سوء أدب ، وقلة حياء من
ذلك الذي استخدم سلطة أبيه للانتقام من وزير سابق ، وهو أمر يحدث في عالمنا كثيرا ، ولا يدل بحال
على ضعف الكرامة العربية ، فمن الخطأ أن نرى سلوكا غير سوي لفرد ، ثم نسحب الحكم على هذا
السلوك أو على صاحبه إلى المجتمع كله ، فنصف هذا المجتمع بضياغ الكرامة العربية ، ولا أدري هل
كلمة " الكرامة العربية " التي ترجمها أبو ريدة هي ما قصده " متر " أم لا ؟ ، فإن كان الأمر على هذا
النحر ، فإن المؤلف مخطئ ؛ لتعميمه الأحكام ، والمترحم مخطئ كذلك ، لعدم التنويه على هذا الكلام ،
وإن كانت الترجمة خطأ ، فالخطأ أغلبه يقع على المترجم .

ولقد حاول " متر " أن يرجع إلى عصر النبوة ، فذكر مثالا يوضح كيف كان النبي صلى الله
عليه وسلم مثالا للمحافظة على كرامة العربي ، فذكر ما جرى في غزوة بدر حين كان النبي صلى الله

ليه وسلم يعدل الصموف فمر سواد بن غزية ، وهو مستصل من الصف قطعه بالقدح ، وقال : (ستو يا سواد ، فقال : يا رسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدي ، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه ، فاعتنقه سواد وقبل بطنه ويعلق متر على ذلك بقوله (ص ١٨٧) : " بدا مثال لشعور العربي الأول بكرامته " .

والحق أن الأمر أكبر من ذلك ، فالحادثة تدل على عدل النبي ﷺ ورحمته ، وتواضعه ، وضبطه للأمور ، وحسن قيادته ، كما تدل على مدى حب الصحابة رضوان الله عليهم للرسول ﷺ . ومع كل هذا فإن الموضوع مرتبط بعصر النبوة ، وليس بالقرن الرابع الهجري .

وأما الحكاية عن أبي محمد المهلي الذي كان يهان ويضرب ثم يقبل الوزارة بعد ذلك ، فهي في القرن الرابع الهجري ، لكننا لا ندري هل هذه عادة من عادات هذا القرن أم خلق من أخلاق الناس فيه ، وهي حادثة وحيدة ؟!

ولما لم نجد " متر " سوى حادثة المهلي للتدليل على ضعف الكرامة العربية في القرن الرابع الهجري لجأ للكلام عن القرن الخامس الهجري .

وحين تحدث متر عن التعذيب في السجون تطرق إلى موضوع العقوبات التي كانت تستخدم ضد المتمردين ، ومنها : " إحراق الجثث " ؛ وعلق على ذلك في الهامش ، بقوله (ص ١٩٣ هلمش ٤) : " هذا هو الحال ، وكذلك كان قديما . انظر مثالا ما اشترطه أبو بكر على وفد المرتدين لما قدم عليه ، وهو أنه " حيرهم بين الحرب المحلية ، أو السلم المخزية ، فقالوا : قد عرفنا الحرب المحلية ، فما السلم المخزية ؟ قال : أن نزع منكم الحلقة والكراع ، ونغنم ما أصبنا منكم ، وتدفنوا قتلتنا ، ويكون قتلاكم في النار " . وكان قواد المسلمين في ذلك العصر يحرقون المرتدين حقيقة (انظر فتوح البلدان طبعة ليدن ١٨٦٦ ص ٩٤ ، ٩٨) . وكذلك كان إلغاء الدية عند اليونان مرتبطا بظهور عادة إحراق الأجساد عندهم " .

أما قوله هذا هو الحال اليوم ، فإن متر صادق في ذلك ؛ لأنه يحكي واقعا حيا في مجتمعه ، أما مفهومه أن هذه العقوبة (إحراق الجثة) كانت في عهد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - مستدلا على ذلك بقوله " ويكون قتلاكم في النار " أنهم يحرقون ، وأكد ذلك بقول البلاذري أنه " كان قواد المسلمين في ذلك العصر يحرقون المرتدين حقيقة " ، فأما كلام البلاذري فلا دليل عليه ، وأما ما فهمه متر من كلام أبي بكر - رضي الله عنه - فهو فهم خاطئ ، فالصديق - رضي الله عنه - يريد التأكيد على أن

المرتدين كفرة ، وبالتالي فهم في نار جهنم حالدين فيها فهذا حكم الله (والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) .

وإذا كان المجتمع الغربي يعرف الانتحار منذ فترة طويلة لعدم وجود وازع ديني يحكمه ، فقد استغرب متر ألا يجد ذلك في المسلمين ، فقال : " لم يلفنا منه - يعني من الانتحار - إلا مثالان في ذلك العصر "

هذا النص يوهم بأن المؤلف يتقصى ما يتعلق بالعصر (القرن الرابع الهجري) ، والحق أنه لم يجد عبر تاريخ المسلمين سوى حالتين فقط مما جعله يضطر إلى استخدام أسلوب القصر ، مع محاولة الاستنكار أن لا يجد سوى هاتين الحالتين ، وكأنه يريد القول : إن حالات ربما تكون قد حدثت لكنها لم تبلغني ، ويبدو أنه يستغرب أن يكون المجتمع الإسلامي بريناً من حالات الانتحار ، وهذا راجع إلى ما لاحظته في مجتمعه هو من كثرة هذه الحالات بحيث أصبحت ظاهرة ، فأراد أن يخلصها على مجتمع المسلمين إلا أنه لم يجد لها أثراً !!

وذكر " متر " كلاماً أقل ما يوصف به أنه (ساقط) ، ولا يمثل ظاهرة في مجتمع المسلمين ، لأنه منقول عن فرد واحد ، وليس سلوكاً لهذا الفرد ، بل هو كلام صيغ في قالب شعري ، وهو مجموعة أبيات للمعتر ، واستدل بها متر على فكرة تمادي العشاق ؛ مما يؤكد افتقاره إلى المادة العلمية ، وعدم القدرة على الإتيان بدليل واضح يصف به المجتمع المسلم بالمجون ، لذلك يسرع بالقول : إن موضوع تمادي العشاق كان " من عادات الرومان أيضاً " .

ولا ندري ما صلة المجتمع المسلم بعادات الرومان ؟ هل تأثر المسلمون بهذه العادات الرومانية ، فظهرت عندهم ؟! وهل يمثل تمادي العشاق ظاهرة اجتماعية تستحق الدراسة أو التنويه عليها ضمن أخلاق القرن الرابع الهجري وعاداته ؟!

ثاني عشر : الاجترأ على رسول الله ﷺ :

إن العطف على اليتيم من مبادئ الإسلام الأصلية ، فقد أمر الله تعالى بذلك في آيات عديدة منها قوله تعالى (فأما اليتيم فلا تقهر) (سورة الضحى) وقوله : (وآتوا اليتامى أموالهم) (سورة النساء) .

والرسول ﷺ قال : " أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وجمع بين أصعبه " لكن متر قال (ص ٢٠٥) : " وبطراً لأن النبي عليه السلام ، كان يتيماً ، فقد صار المسلمون يعطفون على اليتامى عطفاً

خاصاً، وإن لم يجمعوا في بيوت أعدت لهم؛ ففي أصفهان مثلاً كان أحد الصالحين يذهب بالأيتام يوم الجمعة إلى منزله، ويدهس رءوسهم (٧٢).

وهذا الكلام يحمل في طباته عمر النبي ﷺ، فصلاً عن عدم صحة ما يقوله "منز"، فالمسلمون لم يعطفوا على اليتيم لأن نبيهم ﷺ كان يتيماً، بل لأن الله عز وجل أمرهم بذلك، ولأنه ﷺ أمرهم بذلك أيضاً، وواضح أن "منز" لا يعرف شيئاً عن الإسلام، فهو لا يعرف أن الرسول ﷺ على الرغم من يتمه فقد كان في رعاية الله، ونشأ صالحاً صادقاً أميناً، ولكنه ﷺ دعا إلى العطف على اليتيم لأنه اليتيم أضعف الناس، فهو مهبط الجناح، لعدم وجود نصر له في الدنيا بعد فقد والده، فهي دعوة إلى تماسك أفراد المجتمع، وعدم نبذ أحد منهم، وهذا من أسل المعالي في العلاقات الإنسانية، حين لا يجد اليتيم نفسه غريباً بين الناس، بل يشعر بأنه محفوف بالرعاية والعناية، فلا يجتمع عليه ألم فراق والده، وألم مفارقة المجتمع له، ونبذه إياد.

ثالث عشر : المدح في غير موضعه وإنكار الحق :

قال منز (ص ٢٠٥) : " إن أول من بنى داراً للرضى في الإسلام الوليد بن عبد الملك " وهذا كلام فيه نظر، إذ كانت هناك دور متنقلة للجرحى في المعارك منذ عصر النبوة، مثل حبة وفيدة، وغيرهما ثم انتقل إلى القول : " ثم جاء البرامكة، وكانوا بعيدين عن الإيمان كل البعد، فأسروا بمارستانا أسندوا رياسته لطبيب هندي " (٧٣).

والسؤال هنا : ما صلة البعد عن الإيمان بتأسيس المارستان ؟ ، ثم إن هذا الكلام في القرن الثاني الهجري .

ثم انتقل منز إلى الكلام في القرن الثالث الهجري فأطال الكلام عن المستشفيات التي نشأت فيه، ثم انتقل أخيراً إلى القرن الرابع الهجري، ويلاحظ على كلام منز في هذا القرن ما يلي :

- تدرج " مبتز " من الكلام عن اهتمام الخلفاء في القرن الرابع الهجري ببناء المستشفيات والشفقة عليها من ملهم الخاص إلى الكلام عن الوزراء واهتمامهم ببناء المستشفيات وأعمال البر ، ثم انتقل إلى الحديث عن كبار رجال الدولة واهتمامهم بالمستشفيات وأعمال البر أيضاً ، وقد بدأ كلامه بـ " لتركيز على (فضل) طبيب غير مسلم هو "سان من ثابت" الذي كان يشرف على خمس مستشفيات في بغداد وحدها ، وبفضل عبقرية ومهارته وإشارته فتح الخليفة المقتدر مستشفيات آخران كان يفتقر عليهما من ماله الخاص .

إن اهتمام الخلفاء والوزراء وكنار رجال الدولة ببناء المستشفيات يعد مدحاً لهم ، ومع هذا لم تعد متر يشير إلى مدح عمل هؤلاء ، وإنما يشير إلى فضل طبيب غير مسلم في تحريك العلماء والقادة لساء المستشفيات وأعمال الخير ، أفلا يدل هذا على سعة صدر المسلمين وسماحتهم وإدراكهم أن الحكمة صالة المؤمن ، فإذا وجدها فهو أحق الناس بها ١٢ ، إن احترام رعايا الدولة ووضعهم في مكانهم اللائق بهم أمر يقره المجتمع الإسلامي ، الذي لا يعرف التعصب الديني ، فالإنسان بعمله وجهده ، ولكل عتهد نصيب . ولعل هذا مما لم يدركه فكر ذلك المستشرق الألمان !! .

- ثم تكلم متر عن أمر الخليفة "المقتدر" للطبيب غير المسلم "سان بن ثابت" بامتحان الأطباء قبل ممارستهم لمهنة الطب ، وبين أن السبب في ذلك هو ما بلغ الخليفة من أن طبيباً أخطأ في معالجة رجل ، مما أدى إلى وفاته ، فأمر بامتحان الأطباء ، لكن متر تعجب من طريقة اختبار سان بن ثابت للأطباء ، حيث إنه كان يقول عندما يجلس إليه المتحن : " قد انتهيت أن أسمع من الشيخ شيئاً أحفظه عنه ، وأن يذكر شيئاً في الصناعة " .

وهذا الكلام يؤكد اهتمام الخليفة "المقتدر" بمصالح الناس أولاً ، كما يشير إلى مدى احترام مهنة الطب ، فلا يمارسها إلا من كان ذا خبرة عالية ، وكفاءة خاصة ، فرعاية مصالح العباد من أحصر خصوصيات أعمال الخلفاء ، لأن حقيقة عمله هي (حراسة الدين وسياسة الدنيا) ومن السياسة الإسلامية الحكيمة حفظ النفس ؛ باعتبارها واحدة من الضرورات الشرعية التي ينبغي على الخليفة مراعاتها .

ثم إن طريقة اختبار سان بن ثابت للأطباء تعد مدحاً في حقه ، فهو يريد أن يحدد الشيخ الذي تعلم على يديه الطبيب المتحن ، كما يريد الإفادة من ذلك ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، وهذه ميزة تعلمها هذا الطبيب من منهج العلماء المسلمين وهي التواضع ، والاستفادة من كل شيء حتى من طلابه وهو يختبرهم . بل هي ميزة للمجتمع الإسلامي ذاته ، الذي وثق في هذا الطبيب ، وأعطى له من الصلاحيات ما يجعله يختار الطبيب الخاذق في مهنته ، لأن الإسلام يهتم بصحة الأبدان ، ويضع نصب عينيه تحقيق المساواة بين الناس والمحافظة على أبدانهم ، وإن كانوا غير مسلمين ، وهذا يدل على إنسانية هذا الدين ، ورحمة أبنائه وسماحتهم .

- ثم تكلم متر عن بعض المدن الكبرى في الدولة الإسلامية غير بغداد التي كانت لها مستشفيات خاصة وعلق في الهامش (هامش ١ ص ٢٠٨) بقوله : " ويحكى عن حكم أنه سي في

واسط وقت المحاجة دار ضيافة للضعفاء والمساكين ... ، ولم يصبح مدينة واسط مستشفى حقيقي إلا في عام ٤١٣ هـ .

أقول : وهل يعيب مدينة واسط عدم وجود مستشفى فيه ؟ ربما لم يكن الأمر يستدعي بناء مستشفى ! ، وربما كان الناس يكتفون بالاتصال بالأطباء والعلاج على أيديهم ، والدليل على هذا أنه لم دعت الحاجة إلى بناء دار ضيافة للضعفاء والمساكين بنيت هذه الدار .

- وكان آخر ما ذكره متر في هذا الفصل هو قوله (ص ٢٠٨) : " ولم يصلنا قط في أحبار هذا القرن أن أحد الأطباء كان يعتبر مسئولاً عن مريضه ، بحيث يقتل إن مات بين يديه . وفي عام ٩٢٤ هـ - ٩٣٥ م توفي هارون بن المقتدر آخر الخليفة المطيع بالله فحزن عليه واغتم ، واكتفى بنفي الطبيب نخثشوع بن يحيى ، لأنه اتهم بتعمد الخطأ في علاجه " .

ومن العجيب أن المؤلف لم يصله خبر قط في هذا القرن عن قتل أي طبيب إذا أخطأ في علاج مريض ، أو مات المريض بين يديه . فلماذا يذكر هذا الكلام ؟ .

أما نفي الطبيب نخثشوع ، فبسبب اتهامه بتعمد الخطأ في العلاج وهو عقاب عادي ، ومبدأ العقاب على الخطأ تقرر في شريعة الإسلام ، وقد استدل متر نفسه في الفقرة السابقة بواقع حدث في عهد المقتدر ، ويبدو أن عدم معرفة " متر " بالعقيدة الإسلامية ، ومبادئ الشريعة الغراء جعله يستنكر ألا يعاقب الطبيب إن مات المريض بين يديه ، ولم يكن للطبيب دخل في ذلك الموت ، فلعل متر لا يعرف أن الموت قدر محتوم ، وأنه تعددت الأسباب والموت واحد ، إذ ما ذنب طبيب جاءه مريض في السرير الأخير ولم يستطع إنقاذه فمات ؟! أما إذا أخطأ الطبيب في العلاج وأدى ذلك إلى موت المريض فالعقوبة واردة ، ولكنها تقدر بقدرها .

بعد هذه القراءة النقدية لفصل واحد من فصول كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم متر ، وهو الفصل العشرين عن الأخلاق والعادات ، نؤكد للقارئ أن متر ليس مصفاً ، وليس صاحب منهج علمي واضح كما تصور الأسناد أحمد أمين ، وأن الأخلاق كما كان يعني لمتر أن يكتبها تختلف عما كتبه متر تماماً ، وكذلك العادات .

ومن أقرب الأدلة على ما أقول هو أن متر قد أطلع بلا شك على كتاب أحسن التقاسيم للقدسسي ، بدليل أنه اقتبس منه فقرات عديدة ، ومع ذلك لم يلتفت عن عمد أو غير عمد لما ضمه المقدسي كتابه - على سبيل المثال - من مصطلحات خاصة بالملابس التي كان يرتديها المسلمون في ذلك العصر الذي تعرض له متر ، فقد سجل المقدسي ١١٢ مصطلحاً في الألبسة ووصف الألبسة العربية في القرن الرابع الهجري وصفاً دقيقاً يجمع بين براعة الاستخدام اللغوي والتصوير المعنوي الذي يظهر صور الثياب العربية في المجتمع الإسلامي حكماً ومحكومين في عدد كبير من أجزاء الدولة التي زارها المقدسي (٧٤).

ومن العادات التي لم يتكلم عنها متر مع وجودها في القرن الرابع الهجري عادة (الموائد) ، حيث كانت تستخدم فيها الآداب الراقية ، والذوقيات الرفيعة ، بغير خيلاء ولا تكلف ، بل كانت " لموائد العربية أسبق إلى الأنافة " " وما أحسب التمدن الغربي وتطوره إلا مقتبساً من كل ما عرفه الشرق لعربي قلبه ... وعنه أخذ ، ومنه اقتبس !! وكذلك هي الحال في علومه وفنونه ، وكل ما احتلته أو صطعته من وسائل الأنافة والنظافة والرفاهية والنعيم " (٧٥) .

صور مقترح :

وأعتقد أنه إذا أراد أي باحث مصنف حاد أن يتعرض لأخلاق مجتمع المسلمين في القرن الرابع الهجري وعاداته أن يتكلم في الموضوعات التالية :

ولاً : الأخلاق : ويدور الحديث فيها حول ثلاث محاور هي :

(١) أخلاق الخلفاء والأمراء والقادة ، ويكون التركيز على معاني السجاء والورع والشجاعة العدل والرحمة بالرفعة والإحسان إليهم ..

(٢) أخلاق العلماء ، وهذا القرن يعج بعلماء أفذاذ لهم أثر كبير في الحياة والمجتمع ، ويك
التركيز على معاني الأمانة ، والتواضع ، والعزة ، والعفة ، وقول الحق ، والصبر على العلم وطلابه .
(٣) أخلاق العامة ، من التكافل والتراحم ومحبة العلماء ، والتعاون مع الراعي ..
وما من شك في أن الإخلاص والتقوى والتواضع والتوبة والتوكل والرضا والزهد وال
الطمأنينة والقناعة والورع والصدق والحياء والشكر والأمانة والإنفاق والاستقامة والخوف والره
والرفق والعفو والرحمة والحلم والمروءة والنصيحة والإحسان والعدل ، كلها تعد من الأخلاق التي تح
بها المسلمون في المجتمع الإسلامي ، وإن كتب التاريخ والتراجم لتزخر بالعديد من النماذج الراقية -
القرون المحجرة المختلفة - نماذج التزمت هذه الأخلاق سلوكاً ومنهج حياة ، وحققتها قولاً وع
واعتقاداً .

ثانياً العادات ، مثل : الأطعمة ، والأشربة ، والألبسة ، والمواكب والأعياد وعادات ال
وحفلاته إلى غير ذلك من الأمور التي تعد عادات اجتماعية ، وأمثلة حية للأخلاق الإسلامية ال
و أحسب أن الباحث يستطيع جمع شتات هذا الموضوع من كتب الطبقات والتاريخ والتراجم ، فظ
عن كتب السلوك والأخلاق التي تزخر بها المكتبة العربية .
توصية :

يوصي الباحث باستمرار الباحثين في غربة ما يفد إلى ثقافتنا العربية الإسلامية ، ، وتحق
وفق الضوابط الشرعية الإسلامية ، وعدم الانبهار ببريقه ، والتنويه على جوانب الخير فيه ، والتحذير
سمره وافترائه .

كما يوصي الباحث أيضاً بعدم تداول النسخة العربية من كتاب الحضارة الإسلامية إلا بع
غربلتها ، ونفي خبثها ، وأسأل الله تعالى أن يعين الباحثين على ذلك ، إنه جواد كريم .
وأخيراً ..

أسأل الله العلي القدير أن أكون قد أديت بعض ما ينبغي أدائه من خلال هذه القراءة النقد
لكتاب آدم منز؛ حرصاً على تراثنا الإسلامي الأصيل من الدسائس التي تندس فيه، وإحقاقاً للحق والراء
الصدق به، وأداءً لأمانة العلم التي أكرمني الله تعالى لها.

والله من وراء القصد وهو يهدي إلى أقوم طريق ، والحمد لله رب العالمين

من مراجع الدراسة

ابن أبي جراحة : كمال الدين عمر بن أحمد : بغية الطلب في تاريخ حلب - تحقيق د . سهيل
نكار - ط . الأولى سنة ١٩٨٨ م - - دار الفكر - بيروت .

ابن الأثير : أبو السعادات محمد الدين المبارك بن محمد (٦٠٦هـ) : جامع الأصول في أحاديث
الرسول - تحقيق عبد القادر الأرناؤوط - الطبعة الثانية ١٩٨٣ م - دار الفكر - بيروت .

ابن الأثير : محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني (٦٣٠ هـ) الكامل في التاريخ - تحقيق
في الفداء عبد الله القاضي - ط . الثانية سنة ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م . دار الكتب العلمية بيروت
ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (٥٩٧ هـ) . :

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - تحقيق محمد مصطفى وعبد التادر عطا

دار الكتب العلمية - بيروت - ط . الأولى سنة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

- ذم الهوى - تحقيق مصطفى عبد الواحد

ابن العماد : عبد الحمي بن أحمد العكري الدمشقي الحنبلي (١٠٨٩ هـ) : شذرات الذهب

في أخبار من ذهب - دار الكتب العلمية - بيروت

ابن تغري بردي : جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي (٨٧٤ هـ) : النجوم الزاهرة

ملوك مصر والقاهرة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - مصر

ابن تيمية : أحمد بن عبد الحلیم : رسائل وفتاوي ابن تيمية في الفقه .

ابن حوقل : أبو القاسم النصيبي (٣٦٧ هـ) : صورة الأرض ط . الثانية سنة ١٩٣٨ م

ليد

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (٦٨١ هـ) : وفيما

الأعيان وأنباء الزمان - تحقيق : د . إحسان عباس - ط . سنة ١٩٦٨ م - دار الثقافة - بيروت .

ابن منظور : محمد بن مكرم بن منظور المصري (٧١١ هـ) لسان العرب ط . الأولى -

صادر بيروت .

البخاري : محمد بن إسماعيل البخاري : الجامع الصحيح .

بدوي : د عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين - الطبعة الثالثة ١٩٩٣ - دار العلم للملايين - بيروت .

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ) كتاب الحيوان ط . سنة ١٩٤٥ م - القاهرة

حسن : د . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - ٥

السابقة سنة ١٩٦٥ م - دار الأندلس بيروت

الحموي : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (٦٢٦ هـ) معجم البلدان - طبعة د

الفكر بيروت : ج ١ ص ٥٢٦ .

الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (٧٤٨ هـ) : العبر في خير من غير تحقيق : د

صلاح الدين المنجد . مطبعة حكومة الكويت - الكويت - ط . الثانية سنة ١٩٤٨ م

الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز : سير أعلام النبلاء : ط . مؤسسة الرسالة

السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١ هـ) تاريخ الخلفاء ط . الأولى سنة ١٣٧١ هـ -

١٩٥٢ م - مطبعة السعادة مصر - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد

الطاهر : د . عبد الباري محمد الطاهر : فرسان والخلافة في العصر العباسي الأول - ط . الأولى

- سنة ١٩٩٤ م دار رياض الصالحين الفيوم - مصر

الطبري : أبي جعفر محمد بن جرير (٣١٠ هـ) : تاريخ الأمم والملوك - ط . الأولى -

١٤٠٧ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت .

القضاعي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (٦٥٨ هـ) : الحلة السير

- تحقيق : د . حسين مؤنس - ط . الثانية سنة ١٩٨٥ - دار المعارف - القاهرة

المديد : سليمان بن عبد الله : منهج المسعودي في كتابة التاريخ الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ -

المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (٣٤٦ هـ) : مروج الذهب ومعاد

الخير - تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد - ط . سنة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م - دار المعارف

القاهرة .

منجية منسية : مقال الألبسة العربية في القرن الرابع الهجري من خلال أحسن التقاسيم

معرفة الأقاليم للمقدسي - مجلة المعجمية - تونس - العدد ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

حواشي الدراسة :

(١) الحديث رواه أحمد في مسنده - باقي مسند المكثرين ج ١٧ ص ٨٠ رقم ٨٩٣٩ .

(٢) بدوي : د عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين - الطبعة الثالثة ١٩٩٣ - دار العلم للملايين - بيروت ٥٤٤ ص

(٣) هكذا ترجم الاسم الدكتور عبد الرحمن بدوي .

(٤) لم يعدد بدوي ما إذا كان اطلع على ترجمات أخرى أم لا ، كما لم يرشح أيًا من هذه الترجمات ، ولم يذكر تناوينها .

(٥) راجع كلام أحمد أمين في تصديره لكتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .

(٦) تصدير أحمد أمين لكتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .

(٧) يمثل هذا الفصل الصفحات (١٥٧ : ٢٠٨) من الجزء الثاني من الكتاب ، وهذا بناء على الطبعة الرابعة المزيّدة بالفهارس ، والتي نشرت سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

(٨) بدوي : المستشرقون : ص ٥٤٤

(٩) الحديث رواه البخاري في صحيحه - كتاب فضائل صحابة النبي صلى الله عليه وسلم

(١٠) لأنه العصر الذي ظهرت فيه حركة علمية متميزة ، جمعت بين الأصالة والمعاصرة ، والذي يعد العصر الذهبي للترجمة من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية .

(١١) المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (٣٤٦ هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر - تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد - ط. سنة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م - دار المعارف - القاهرة .

(١٢) راجع أخباره عند القضاعي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (٦٥٨ هـ) : الحلة السراء - تحقيق : د. حسين مؤنس - ط. الثانية سنة ١٩٨٥ - دار المعارف - القاهرة - ج ٢ ص ٩٦ . وابن الأثير : محمد بن

محمد بن عبد الواحد الشيباني (٦٣٠ هـ) الكامل في التاريخ - تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي - ط. الثانية سنة ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م . دار الكتب العلمية بيروت ج ٧ ص ٣٩٨ ، ٤١١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٨٧ ، ٤٩٤ ، ج ٨ ص ٣ ، ٥

(١٣) السامانيون ، هم جماعة ينتسبون إلى أحد أتراك ما وراء النهر واسمه سامان ، تمكنوا من إنشاء دولة عرفت باسمهم في بلاد ما وراء النهر ، ولهم أخبار كثيرة ، وآثار ضخمة في مجال الحضارة والتقدم العلمي . راجع الطاهر : د. عبد الباري محمد الطاهر : فرسان والخلافة في العصر العباسي الأول - ط. الأولى - سنة ١٩٩٤ م دار رياض الصالحين الفيو

- مصر

(١٤) راجع أخباره عند الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز سير أعلام النبلاء : ط. مؤسسة الرسالة ج ١٥ ص ٥٠ . وابن أبي جرادة : كمال الدين عمر بن أحمد : بغية الطلب في تاريخ حلب - تحقيق د. سهيل ذكار - ط

الأولى سنة ١٩٨٨ م - دار الفكر - بيروت - ج ٨ ص ٣٧٤٤ ، وابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - تحقيق محمد مصطفى وعد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ . الأ

سنة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م ج ٦ ص ١٤٦

(١٥ ') طرسوس : بفتح أوله وثانيه وسينين مهملتين بينهما واو ساكنة بوزن قريوس كلمة أعجمية رومية ... سمى بطرسوس بن الروم بن البغر بن سام بن نوح عليه السلام ، وقبل إن مدينة طرسوس أحدثها سليمان (كان حاد المرشد) في سنة ثيف وتسعين ومائة قاله أحمد بن محمد الحمداني وهي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد السو راجع : معجم البلدان ج : ٤ ص : ٢٨ .

(١٦ ') السلطان الكبير عضد الدولة أبو شجاع محمد الملقب (ألب أرسلان) ابن الملك حفريك وهو داود بن ميك بن سلجوق بن نفاق بن سلجوق ونفاق بالتركي قوس جديد ونفاق أول من دخل في دين الإسلام وألب أرسلان أول قتل له السلطان على منابر بغداد وكان في أواخر دولته من أعدل الناس ومن أحسنهم سيرة وأرغبهم في الجهاد وفي نص الإسلام . قتل سنة أربع وستين وأربعمئة وتسلطن ابنه ملكشاه . راجع : الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان بن قايما ٧٤٨ هـ) : العبر في خير من غير تحقيق : د. صلاح الدين المنجد . مطبعة حكومة الكويت - الكويت - ط. الثاني سنة ١٩٤٨ م - ج : ٣ ص : ٢٥٨ - ٢٦٠ ، و ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (١ هـ) : وفيات الأعيان وأنباء الزمان - تحقيق : د. إحسان عباس - ط. سنة ١٩٦٨ م - دار الثقافة - بيروت - : ٥ ص : ٦٩ .

(١٧ ') " برجوان - خادم العزيز ، الأستاذ أبو الفتوح برجوان الذي ينسب إليه حارة برجوان بالقاهرة ، كان من خدم العزيز صاحب مصر ومديري دولته ، وكان نافذ الأمر مطاعاً نظر في أيام الحاكم في ديار مصر والحجاز والشام والمغرب سنة ٣٣٨ هـ ، وكان أسود ، وقتل عشية يوم الخميس السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر وقيل بل قتل يوم الخميس منتصف جمادي الأولى سنة تسعين وثلثمائة في القصر بالقاهرة بأمر الحاكم ضربه أبو الفضل ريدان الصقل صاحب المظلة في خوفه بسكين فمات من ذلك ، وذكر ابن الصيرفي الكاتب المصري في أخبار وزراء مصر أن برجوان نظر في أمور المملكة في شهر رمضان من سنة سبع وثمانين وثلثمائة ولما قتل خلف ألف سراويل ديفي بألف نكة حرب ومن الملابس والفرش والآلات والكتب والطرائف ما لا يحصى كثرة والله أعلم " . راجع : وفيات الأعيان ج : ١ ص ٢٧٠ .

(١٨ ') وفيات الأعيان : ج ١ ص ٢٧٠ .

(١٩ ') هو الحسن بن هاني عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء ، شاعر العراق في عصره ، ولد في الأهواز من بلاد خوزستان ، واختلف في نسه ، نشأ في البصرة ، ورحل إلى بغداد ، واتصل فيها بالخلفاء العباسيين ، ومدح بعضهم ورحل إلى دمشق ثم مصر ثم رجع إلى بغداد وتوفي بها . واشتهر شعره في الحمريات ، وقد كثر محبوه ، وانهم بالزندق راجع وفيات الأعيان .

(٢٠ ') لم أعر على هذا الاسم في المصادر المتاحة .

(٢١ ') المعتضد بالله أبو الفتح داود بن المتوكل على الله كانت خلافته ثمانية وعشرين سنة وشهرين ونوى يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول وقد قارب التسعين واستقر بعده شقيقه المستكفي بالله أبو الربيع سليمان بعهد من راجع ابن العماد عم

يحيى بن أحمد العكري الدمشقي الحنظلي (١٠٨٩ هـ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب - دار الكتب العلمية -
روت ج ٤ ص ٢٥٥ .

(٢٢) ابن حمدون - نديم الخليفة المعتضد ، ويبدو أن الرسالة كانت بغرض استدعاء ابن حمدون للخليفة - والنص
كمله منقول عن الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير (٣١٠ هـ) : تاريخ الأمم والملوك - ط. الأولى سنة ١٤٠٧
- - دار الكتب العلمية - بيروت - ج ٥ ص ٦١٩ .

(٢١) المسعودي : مروج - ج ٨ ص ٢٩٩

(٣٠) سيرد تفصيل الكلام عنها بعد قليل .

(٢٥) المسعودي : مروج - ج ٨ ص ١٤٨

(٢٦) النفدي : ص ٢٤٢

(٢١) ابن حوقل : أبو القاسم النصيبي (٣٦٧ هـ) : صورة الأرض ط. الثانية سنة ١٩٣٨ م - لبنان ص ٧٥

(٢٧) إجماع : أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ) كتاب الحيوان ط. سنة ١٩٤٥ م - القاهرة : ج ١ ص ١٥ .

(٢٩) مؤنس الخادم الملقب بالمظفر ، كان أمير معظماً شجاعاً منصوراً ، يبلغ أحد من الخدام منزله إلا كفاور صاحب
صر . توفي سنة ٣٢١ هـ عن نحو تسعين سنة . شذرات الذهب ج ١ ص ٢٩١ وأخباره في تاريخ الطبري ج ٥
ص ٦٧٢ وما بعدها .

(٣٠) لم أعرّض هذين الاسمين على ترجمة في المصادر المتاحة .

(٣١) صِفَلِيَّة : بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء أيضاً مشددة - وبعض يقول بالسين - وأكثر أهل صقلية يفتحون
صاد واللام : من جزائر بحر المغرب مقابلة إفريقية ، وهي مثلثة الشكل بين كل زاوية مسيرة سبعة أيام ، فيها ثلاثمائة
بني وعشرون قلعة ، كثيرة الحصون ولها عدة أمار وبساتين - راجع معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٤١٦ - ٤١٩

(٣٢) راجع الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي - الدولة الأخشيديّة .

(٣٣) تاريخ الطبري ج ٥ ص ١١٧ .

(٣٤) السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١ هـ) تاريخ الخلفاء ط. الأولى سنة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م - مطبعة
للمعاصرة مصر - تحقيق محمد عبيد الدين عبد الحميد - : المقدمة .

(٣٥) حسن : د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - ط. السابقة سنة
١٩٦٥ م - دار الأندلس بيروت - ج ٣

(٣٦) فطويه : الإمام الحافظ النحوي العلامة الأحمري أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان العنكي الأردني
لواسطي المشهور بفطويه صاحب التصانيف ، ولد سنة ٢٤٤ هـ وكان متضلعا من العلوم ، ومن محفوظه نقائض
جرير والمرردق وشعر ذي الرمة خلط نحو الكوفيين بنحو الصريين وصار رأساً في رأي أهل الظاهر ، وكان ذا سنة ودين
وفته ومروءة وحسن خلق ، وله نظم ونثر ، صنف : عرب القرآن ، وكتاب المقنع في النحو ، وكتاب البارع ، وتاريخ
الخلفاء في مجلسين وغيرها . مات سنة ٣٢٣ هـ . راجع : الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ١٥ ص ٧٥-٧٧ ترجمة رقم

(٣٧) ابن الخوري : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (٥٩٧ هـ) . ذم الهوى - تحقيق مصطفى عبد الواحد ص ٣٢٧ - ٣٢٩

(٣٨) الحكاية ذكرها ابن كثير بطولها في البداية والنهاية (ج ١٢ ص ٣٨) ، وفيها بعض الاختلافات اللفظية بينها وبين ما ذكره متر .

(٣٩) ابن الأثير : الكامل : ج ٨ ص ٢١٧ .

(٤٠) بغية الطلب في تاريخ حلب : ج ٢ ص ٦٢٨ .

(٤١) التكملة لكتاب الصلة : ج ١ ص ١٧٤ .

(٤٢) ابن تغري بردي : جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي (٨٧٤ هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - مصر : ج ٤ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٤٣) أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الضبي الحلبي الشاعر ، شعره في الذروة العليا ، كان حده فيه حدة وذكره فقبل له : إنك لصنوبري الشكل ، فعرف بذلك . راجع : ابن العماء : شذرات الذهب : ج ١ ص ٣٣٥ . والذهب العبر في خير من غير ج ٢ ص ٢٣٤ . وبغية الطلب في تاريخ حلب ج ١٠ ص ٤٧٦٥ .

(٤٤) الرها : يضم أوله والمد والقصر : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام ، بينهما ستة فراسخ ، سميت باسم الراسين . استحدثها وهو الرهاء بن البلندي بن مالك بن وعمر بن وقيل غير ذلك ، وينسب إليها عدد من العلماء . راجع ياقوت معجم البلدان : ج ٣ ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٤٥) لم أعر له على ترجمة ، ولعله بسبب عدم ذكر اسمه صراحة ، والمعوج قد يكون لقباً أطلقه الصنوبري على صاحبه . (٤٦) لم أعر لكلمة (الأشلاف) في القاموس على معنى ، ولعل المقصود منها أن الغلام بلغ سن الرشد . وهذا ظن من السياق .

(٤٧) الرقة : بفتح أوله وثانيه وتشديده ، وأصله كل أرض إلى جنب واد ينسبط عليها الماء . وهي مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام ، ينسب إليها جماعة من أهل العلم . راجع : ياقوت : معجم البلدان : ج ٣ ص ٣٥٠ . ودير زكي بمدينة حمص - تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٢ ص ٣٥٠ .

(٤٨) ياقوت : الإرشاد ج ٢ ص ٢٣ - ٢٦ .

(٤٩) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٩٥ . وابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٩١ .

(٥٠) تكملة تاريخ الطبري : ج ١ ص ١٩٦ . وراجع ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٩١ ، حيث نقل رواية وليغ اختيار بالغلام ، وأردفها بالكلام عن عماسه . وهذا هو المنهج المنصف .

(٥٠) الشاشي : كتاب الدبارات ص ١٢٧ . وياقوت : الإرشاد ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٥١) ياقوت : الإرشاد ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٥٢) قال السعدي : " حد اللواط وأما حد اللواط فإنه كحد الزنا بعينه في قول أبي يوسف ومحمد وأبي عبد الله قول أبي حنيفة لا حد في اللواط وفيه التعزير لأن اللواط عنده كإتيان البهائم وإتيان النساء فيما دون الفرج وفي حد مالك فيه الرحم أحصى اللواط أم لم يحصى وهو قول الشعبي " . راجع : فتاوى السعدي ج ٢ ص ٦٤٠ .

٥٣) قال فتح القدير " واختلفوا في اللواط هل يقتضي التحريم أم لا فقال الثوري إذا لاط بالصبي حرمت عليه أمه وهو
ول أحمد بن حنبل قال إذا تلوط بآبى امرأته أو أبيها أو أخيها حرمت عليه امرأته " . راجع : فتح القدير جـ ١ ص
٤٤١ .

٥٤) قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : " (اللذان يأتيانها منكم فآذوهما) أي واللذان يفعلان الفاحشة فآذوهما قال
ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وغيرهما أي بالشتم والتعير والضرب بالنعال وكان الحكم كذلك حم
سخه الله بالجلد أو الرجم وقال عكرمة وعطاء والحسن وعبد الله بن كثير نزلت في الرجل والمرأة إذا زنا وقال السدي
نزلت في الفتيان من قبل أن يتزوجوا وقال مجاهد نزلت في الرجلين إذا فعلا لا يكتفى وكأنه يريد اللواط والله أعلم " .
راجع تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٦٣ .

٥٥) قال ابن تيمية في الفقه : " وأما اللواط فمن العلماء من يقول حده كحد الزنا وقد قيل دون ذلك والصحيح الـ
نفقت عليه الصحابة أن يقتل الاثنان الأعلى والأسفل سواء كانا مخصيين أو غير مخصيين . راجع : رسائل وفتاوي ابن
تيمية في الفقه جـ ٢٨ ص ٣٣٤ .

٥٦) راجع : كشف القناع جـ ٦ ص ٩٤ . وكفاية الطالب جـ ٢ ص ٤٢٤ .

٥٧) هذه الصياغة معدلة في الطبعة الرابعة عن مثيلتها في الطبعة الأولى ، فقد كانت صياغة الطبعة الأولى : " أما عاد
لبناء ، فليس مما يستعفى به العزاب عن الزواج - كما يرى المفكرون الاجتماعيون " ، ولا أمرى من الذي قام به
لتعديل ، أهو أبو ريذة نفسه ؟ أم الذي وضع فهرس الكتاب في الطبعة الرابعة ؟! فإن كان أبو ريذة فهذا يدل علم
محاولة التعديل ، ويؤكد ما قاله عبد الرحمن بدوي من وجود خلل في الترجمة ، وإن كان من واضع الفهارس للطبعة الرابعة
، فهذا يدل على عدم الأمانة العلمية ، وقد لاحظت خللا أكد (ص ١٦٦) حيث ورد في الطبعة الأولى اسم الشاعر
بو نواس) وفي الطبعة الرابعة اسم " أبو فراس " ، وهذا خلل كبير جدا

(٥٨) المسعودي : مروج : خاص ٢٩٥ .

(٥٩) البيروني : تحقيق ما للمهند ص ٢٧٩ . والمقدسي : أحسن التقاسيم ص ٤٤١ .

(٦٠) المقرئ في الخطوط جـ ١ ص ٨٩ .

(٦١) سياست نامه جـ ١ ص ١١١ .

(٦٢) اللاذقية - مدينة من ثغور الشام الساحلية . معجم ما استعجم جـ ٤ ص ١١٤٧ .

(٦٣) القفطي : أخبار الحكماء : ص ٢٩٨

(٦٤) معجم البلدان : جـ ٥ ص ٦ .

(٦٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ١١٣-١١٤ .

(٦٦) الماوردي الأحكام السلطانية : ص ٤١٨ .

(٦٧) نقلها متر عن STENDHAL PROMENADES . IF .S.358

(٦٨) وراجع عناية النساء بالحديث النبوي ص ٤٩

(٦٩) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٤٤

- (٧٠) ابن الأثير : الكامل جـ. ٨ ص ٢٠٤ .
- (٧١) ذكر أخبار أصفهان مخطوط ليدن ص ١٦١ أ .
- (٧٢) المهرست ص ٢٥٤ .
- (٧٣) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى مقال : الألسنة العربية في القرن الرابع الهجري من خ
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي بقلم منجية منسية - مجلة المعجمية - تونس - العدد ١٤٠٨ هـ - ١ -
م ص ١١ - ٣٥ .
- (٧٤) أحمد بن إبراهيم الفزازي : مقال " الموائد العربية أسبق إلى الأناقة " .